محمد يحيى

أيام العرب

حكايات وتأريخ ومشاهد

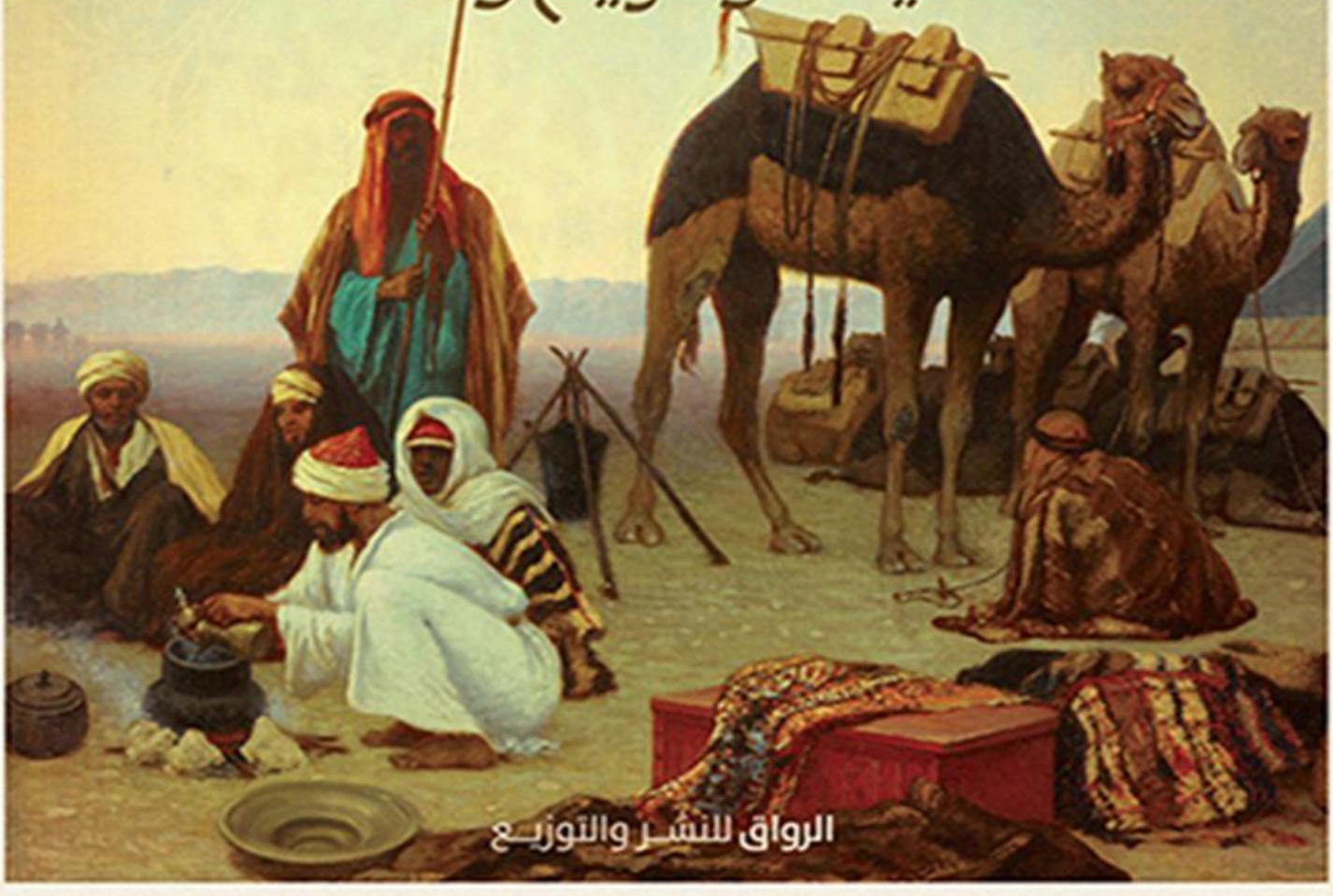

الرواق للنشر والتوزيع

أيَّامُ العَرَبِ

حِكاياتٌ وتأريخٌ ومَشاهِد

محمد يحيى

الرواق للنشر والتوزيع

أيَّامُ العَرَبِ

محمد يحيى

الطبعة الأولى ---- يناير 2022

الغلاف: عبد الرحمن الصواف

الإخراج الفني: ضياء فريد

المراجعة اللغوية: إسلام منتصر

رقم الإيداع: 2021/30154

الترقيم الدولي: 978-977-824-133-4

جميع حقوق الطبع محفوظة

للنشر والتوزيع

186 عمارات امتداد رمسيس 2 - أمام أرض المعارض - مدينة نصر

هاتف: 20220812006+

rewaq2011@gmail.com

alrewaqpublishing

alrewaqpublishing

www.alrewaqpublishing.com

إهداء

إلى أجيالٍ انسلخت من عروبتها وهويتها

ورأت في الغرب قِبلةً تحُجُّ إليها.. إلى جيلي..

بَيْنِي وبَيْنَك

لكَ عليَّ خُلَّةٌ، ولي عليكَ خُلَّة:

أمَّا التي عليَّ لك، فإنِّي أعدك أن تقرأَ كتابًا موجِزًا بلا خلل، جامعًا بلا مَلل.

وأمَّا التي لي عليك، فاستعِن بالخرائط والأنساب التي ألحقتها لك في الكتاب قدر الإمكان. وإن استطعت أن تتزود من خارجه فافعلْ.

واعلم أنَّ هذا الكتاب تمهيدٌ لسلسةٍ طويلةٍ، نحكي بها تاريخَ العربِ بشكلٍ جديد.

تقديم قصير

في نقاشٍ دار بين الكاتب والصديق الأستاذ أحمد عبد المجيد وبيني، سألني عن جدوى تأليف كتاب في تاريخ العرب وقد اكتظَّت المكتبات بكتُب ضخمة في ذات الموضوع. والحق أنَّ الإجابةَ عن هذا التساؤل ليست بالأمرِ الهيِّن، فمن يقول: إن هذا الموضوع قد قُتِلَ تصنيفًا وكتابةً فقد صَدَقَ وصُدِّق. ولكنِّي مع ذلك أرى مشكلةً كبيرةً في ما تحويه المكتبة العربية من كتب عن تاريخ العرب، ألخصها في النقاط التالية:

- **أولًا**: إنَّ كلَّ الكتب التراثيَّة القديمة التي دونت هذا التاريخ أصبحت معلومة عند المتخصصين، مهجورةً عند القرَّاء، ولهذا الهجر أسبابٌ، منها: طول مثن الكتاب، وصعوبة نهْجه وخطته، وبالطبع صعوبة ألفاظه وتعابيره... إلخ.
- **ثانيًا**: جُلُّ الكتب التي تناقش تاريخ العرب تناقشه خدمةً لتاريخ الإسلام ومن منظوره؛ بمعنى أن المُصنِّفَ يتناول تاريخ الإسلام الذي حَمَلَه العرب، ولا يتناول تاريخ العرب الذين طرَأ عليهم الإسلام.
- **ثالثًا**: أدَّى بُعدُ الأقلام الشابَّةِ عن تناول الموضوع إلى زيادة الشقاق بين القرَّاء الشباب وبين قراءة تاريخ العرب. فهذا التاريخ بحاجة ماسَّة إلى العرض بأسلوب خاص، دون إخلالٍ أو تقصير.
- **رابعًا**: يفتقد هذا الموضوع إلى سلسلةٍ مرتبطةٍ تتكون من أجزاء موجزة يعيش معها القارئ غير المتخصص رحلةً ماتِعة، تنتهي به إلى معرفة سيرة هذه الأمة، والوقوف على هويتها.
- **خامسًا**: معظم الكتابات المتأخِّرة والمعاصرة التي تتناول التاريخ وتُقدِّمه للعوام، لم تَخْلُ من تحزُّبٍ وتوجيه.

بناءً على هذه النقاط، بدأت العمل في هذا الكتاب، مُستهدفًا مُنتَجًا بسيطًا يجذبُ شهوة القارئ الشاب، ويُرضي معرفة القارئ المُلِمِّ، على أن يكون كتاب (أيام العرب) هو الجزء الأول من سلسلة طويلة بإذن الله.

ولأني أردتُ أن يكون الكتاب الأول مجرد تمهيد لما بعده، فقد جعلتُه رحلة سريعة يخرج منها القارئ وقد عرف موقع بلاد العرب وحدودها وتاريخ سكانها وأصلهم وفروعهم، وثقافاتهم وعاداتهم وأديانهم ومعتقداتهم، ويعرف أشهر حروبهم وأيامهم، ويعرف جيرانهم وعلاقاتهم بهم. على أن يكون متنُ الكتابِ مزيجًا بين التقعيد والقصص، فما يتضح ويسهل فهمه بالقصص، استخدمنا فيه القصص، وما يحتاج إلى تقعيدٍ خاص، قعَّدنا له من غير قصةٍ أو حكاية. وإنِّي وإن تأثرتُ ببعضِ لفظِ القرآن، لا أذكر قصص العرب من سياقه، ولا من أي نصٍّ ديني. فحتى حكايات العرب البائدة،

أقصَّها -إن شاء الله- كما وردت في كلام العرب وأشعارهم. وليس هذا لشيءٍ إلّا الالتزام بعرض تاريخ العرب قبل الإسلام، بدلالات ومنظور العرب قبل الإسلام.

ولا أخفيك سِرًّا، فقد كان هذا الأمر في غاية الصعوبة؛ فتاريخ العرب قبل الإسلام قد تُرِكَ حتى جَفَّ ونضب، فمن يريد أن يستمدَّ لقلمه من تلك الفترة، يجد نفسه ضائعًا بين ظلامٍ لا ينتهي؛ فقد أهمل المؤرخون العرب القُدامى هذه الفترة إهمالًا غريبًا(1) طَمَسَها للأبد. فحتَّى الكتب البحثية تعاني هذا الأمر، ولا تجد معينًا تستقي منه إلَّا قليلًا من الأخبار عن المئة الأخيرة قبل الإسلام، أو ما دوَّنَتْه الممالك والإمبراطوريات القديمة التي جاورت العرب أو الإسرائيليات.

أضف إلى ذلك انعدام أي مؤشر للتسلسُل الزمني للأحداث الواردة عن تلك الفترات.

لذلك كان إخراج كتاب تمهيدي يبدأ وينتهي قبل الإسلام، أمرًا صعبًا، خاصةً إذا كان الكتابُ يحتكم لمعيار البساطة والتسلية بلا تدليس أو خَلَل. على هذا فإنِّي أرجو منك أن تعذرني إن رأيت تقصيرًا، وأن تحمد الله إن رأيت توفيقًا.

محمد يحيى
12/ 2021

(1) حاول الباحثون أن يجدوا أسبابًا لذلك، فمنهم مَن ذهب إلى أنَّ الإسلام مثَّلَ ثورةً على حياة العرب القديمة ومعتقداتهم؛ لذلك هجروا تدوين تلك الفترات حياءً أو كراهةً. ومنهم مَن ذهب إلى أن المسلمين الأوائل كرهوا تخليدَ جاهليتهم. ومنهم مَن ذهب إلى أن السبب هو عدم الاهتمام العام لدى الجميع، فأمة العرب لم تكن لها دواوين. وللتوسع في هذا المبحث، انظر (المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام) للدكتور جواد علي، فصل (إهمال التاريخ الجاهلي).

الفصل الأول هِجرةٌ من الجنَّة

كانت الجزيرةُ كلُّها فقيرةً ومقفرةً، يعزُّ فيها الماءُ من شرقِها إلى غربِها. لكنَّ هذه البلدةَ في الجنوب، كانت بلدةً طيبةً جميلةً، لا يكادُ ساكِنُها يتحمَّلُ فِرَاقها، فهي قطعةٌ من الجنَّة سَقَطَتْ على الأرضِ كما سَقَطَ أصلُ جنسِنا، كأنَّها سَقَطَت معه، فليس لها نظيرٌ على الأرض.

كان ذلك بفضل السَّد؛ فقد كان بناءً مُحْكَمًا حَبَسَ الماءَ بين جَبَلَيْنِ فَجَعَلَه يرتفعُ ويربو حتى فاضَ عليهما فتحولا جنانًا تزخر بالنضرةِ والجمالِ والزروعِ والثمارِ. وأصبحت البلدةُ بلدةً طيبةً وآيةً في النعيمِ والوفرةِ والرزقِ، حتى كانت المرأةُ لَتمرُّ بالمِكْتَلِ على رأسها فيمتلئ من الثمار، فقد تجاوز الثمار مرحلةَ النضجِ وتجاوزَ معها حاجتَه للقطف، بل غَدَتْ كلُّ ثمرةٍ تنتظر مكتلًا مارًّا تمتطيه! وكان المُسافر في طرقاتها يسير الشهرَ لا يصاحبه إلَّا ظلٌّ غائم وزادٌ دائم.

كانت لحظةً فارقةً عندما لاحظَ (عمرو بن عامر) شقوقًا وتصدُّعاتٍ في السَّد.

تَجَمَّدَ الرجلُ في مَكانِه، وجَفَّ حلقُه، وشرد بَصَرُه، وطارَ عقلُه بعيدًا قاطعًا فراسخَ زمنيةً إلى المستقبل.

هل هذه هي بداية النهاية؟

إنَّ بينك الآن وأنت تقرأُ هذه الكلماتِ و(عمرو) في ذاك الموقف آلاف السنين، وهذه السنون حالتْ بيننا وبين التبيُّن ممّا فعل (عمرو) بعدما أفاق من فزعه. ربما أرسل من يُذيع في الناسِ خَبَرَ ما رأى، فقام الناسُ معًا لعلاج سَدِّهِم ممَّا أصابه، وربما لم يفعل. إنَّ كل ما وَرَدَ إلينا من أخبار يؤكد أن عَمْرًا قد أدرك لحظتها أنَّ هذه هي بدايةُ نهايةِ البلدةِ الطيبة. وعلى هذا الأساس فكَّرَ (عمرو) في الهجرة بعيدًا، تاركًا هذه الجنَّة.

اعتزم (عمرو) الخروجَ ببنيه من اليمن كُلِّها مُتجهًا إلى الشَّمال، إلى قلب وأطراف جزيرة العرب، فلم تتحمَّل قبيلتُه خروجَه عنهم، فخرجت (الأزد) كلها بعدما باعوا أموالهم وتركوا بيوتهم وودَّعوا جنَّتهم. ورغم أن الناس خرجوا معًا؛ فإنهم اختلفوا في المقاصد، فمنهم من نزل ريف العراق وجنوبها ومنهم من نزل أطراف الشام الجنوبية قاطعًا الجزيرة كلها، ومنهم من نزل عمَّان، ومنهم من نزل يثرب، ومنهم من نزل ظاهر مكَّة. وتُرِكت اليمن بمن فيها من القبائل لتواجه مصيرها المحتوم.

في لحظةٍ ما؛ انهار السَّدُّ وثارت المياهُ المحبوسةُ على أهل (مأرب) فقتلتْ وأفسدتْ ما كانت أصلحت من قبل، حتى أصبحت الجنتان أرضًا مقفرة لا تختلف عن باقي بقاع جزيرة العرب. ورغم هجرة (عمرو) ومن تبعه قبل الكارثة، وهجرة غيرهم بعدها؛ فإن هناك ست

قبائل (سبئية) لم تغادر أرض اليمن، واستمرَّ فيهم المُلك، ولكن يبدو أن اليمن كانت قد أُحيطت بسهام القدر، فحتى هذا المُلك سيُنتزع منهم ويغيب عنهم قُرابةَ سبعين سنة، قبل أن يسترجعَه (سيفُ بنُ ذي يزن).

أمَّا من نزل يثرب، فهما الأوس والخزرج ابنا حارثة. فوجدا فيها قبائلَ لبني إسرائيل، وهم قريظة، والنضير، وقينقاع. فسَكَنَ الأوس والخزرج معهم. وكانت السيطرة لليهود نظرًا للأسبقية، لكنَّهم لم يعدلوا في معاملة جيرانهم الجدد، وفعلوا أفاعيلَ استفزت الأوس والخزرج.

فقد قيل: إنَّ رجلًا من بني إسرائيل، يقالُ له (الفطيون) ملَكَ على يثرب، ودان له اليهود، وكان من عادات هذا الملك أنَّه لا تتزوج امرأةٌ من اليهود حتى تدخل عليه قبل أن تدخلَ على زوجها. فلمَّا أراد (الفطيون) أن يجري هذه العادة على نساء جيرانهم الجدد من الأوس والخزرج، قتله (مالك بن العجلان الخزرجي) ثم فرَّ إلى الشام مستنصرًا بالعرب الغساسنة.

كان ممن عظم شأنُه بين الغساسنة رجلٌ خزرجيٌ اسمه أبو جبيلة بن سالم. فدخلَ عليه (مالك بن العجلان)، وشكا إليه ما كان من بني إسرائيل و(الفطيون). فلمَّا سمع (أبو جبيلة) المقالةَ انتفضَ غاضبًا، وعاهدَ الله ألَّا يمس طيبًا ولا يأتي النساء حتى يذلَّ اليهود ويكون الأوس والخزرج أعزَّ أهل يثرب.

خرج (أبو جبيلة) إلى يثرب ومعه جمعٌ كثير، فلمَّا بلغها، أرسل إلى وجوه اليهود يستدعيهم إليه، وأظهرَ أنَّه يريد مُسالَمَتَهم، فلمَّا أتاه أشرافُهم قَتَلَهم عن آخرهم. ووتَّد للأوس والخزرج فصاروا أعز يثرب، وشاركوا اليهودَ في حصونِهِم وأموالِهم وزروعِهم.

وأمَّا من سَكَن حول مكَّة من مُهَاجرة اليمن، فهم (خزاعة). وكانت مكَّةُ وقتها بلدةً تئطُّ بسكَّانها؛ فقد مرَّ وقتٌ طويلٌ منذ استئذان قبائل (جرهم) من (هاجر) عليها السلام أن يسكنوا معها ورضيعها حول أساس البيت العتيق.

فعندما تُركت (هاجر) وحدها برضيعها عليهما السلام، وبعد انفجار العين المباركة، دخل الوادي قومٌ من (جرهم الثانية)، و(جرهم الثانية) هذه هي قبيلة من اليمن، أتت إلى مكة واستأذنت (هاجرَ) أن تجاورها حول العين، فأذنت (هاجرُ) لهم، وأنست بهم، وشبَّ فيهم (إسماعيل) وتزوج منهم.

قال زهير بن أبي سُلمى:

فأقسمتُ بالبيتِ الذي طافَ حوله

رجالٌ، بنوه، من قريشٍ وجرهم

عندما سكنت (خزاعة) حولَ مكَّة، كان الجرهميون وولدُ إسماعيل (عليه السلام) هم سُكَّانُها. وكان الحُكمُ في الجرهميين رغم شرف أولاد إسماعيل (عليه السلام)، ففي النهاية الجرهميون هم أخوالهم.

أفسدت (جرهم) وبَغَتْ، حتى قيل: إن رجلًا يُدعَى (إساف) أصاب الفاحشةَ مع امرأةٍ تُدعَى (نائلة) في الكعبة!

دفع هذا الإفسادُ (خزاعةَ) -التي كانت تَتَحَيَّن الفرصة- إلى التَّمَالُؤ على (جرهم) والاجتماع لحربهم. فلمَّا وَقَعَت الحربُ اعتزلها بنو إسماعيل (عليه السلام)، وغَلَبَت خزاعةُ، وحُكِمَ على (جرهم) بالخروج من مكة. فقام (عمرو بن الحارث) -وهو وقتئذٍ سيد جرهم- بدفن الحجر الأسود وبعض السيوف المُحَلَّاة وأشياء أخرى ثمينة في زمزم، وطَمَسَهَا. ثم ارتحل بقومه المنهزمين إلى اليمن وقد أصاب قلبَه الحَزَنُ فقال:

وصِزنا أحاديث وكُنَّا بغبطةٍ

بذلك عضَّتنا السنون الغوابرُ

فسحَّت دموعُ العينِ تبكي لبلدةٍ

بها حرمٌ آمِن وفيها المشاعرُ

وتبكي لبيتٍ ليس يؤذي حمامُه

يظل به أمنا وفيه العصافرُ

تمكّنت (خزاعة) من مكَّة وأصبحوا هم وُلاة البيت، وقد سادهم بعد ذلك رجلٌ غنيٌّ يُدعَى (عمرو بن لُحيٍّ). وكان الرجل من العرب إذا مَلَكَ ألفَ بعيرٍ فقأ عينَ واحدةٍ منها درءًا للحَسَد، و(عَمرو) هذا فقأ أعين عشرين بعيرًا. وكان يذبح ويُطعم الحجيج والعرب، ويبذل من ماله الكثير، حتى سَادَ الناسَ، وأصبح قولُه وفعلُه شرعًا مُتَّبعًا فيهم. وفي أحدِ أسفاره إلى الشام مَرَّ على قومٍ يتضرَّعون إلى أصنامٍ يعبدونها! فقالَ لهم: ما هذه الأصنامُ التي أراكُم تعبدون؟

فقالوا: هذه أصنامٌ نعبدُها، فنستمطرُها فتمطرَنا، ونستنصرُها فتنصرَنا.

فأعْجَبَهُ القولُ، وطلب منهم صنمًا يسير به إلى أرض العرب ليعبدوه، فأعطوه صنمًا يُقالُ له (هُبَل).

انتشرت فِعْلَةُ (عمرو) كالمرض الخبيث في سائر جسد الجزيرة حتى أصبح لِكُلَ حيٍّ من أحياء العرب المشهورة صنمٌ يعبدونه؛ فهنا (هُبَل) وهناك (اللاة) و(العُزَّى) و(مناة) و(ذو الخلصة) وغيرُهم، فانهار التوحيدُ في قلوبِ العرب، وفسد دينُهم، وساء مُعْتَقَدُهُم، وخالفوا إبراهيم مخالفةً عظيمةً، إلَّا أنهم ظلُّوا يُجلُّون البيت العتيق ويحجون إليه ويلبُّون. ولكن حجًّا مُبدَّلًا وتلبيةً قد تلبَّسَهَا الشِّرك.

***

كان من ولد إسماعيل (عليه السلام) (قصي بن كِلاب)، وكان يعيشُ في مكة، فلمَّا ماتَ أبوه (كِلاب) تزوجت أمُّه من (ربيعة بن حرام) الذي خرج بها وبـ(قُصي) من مكةَ. فلمَّا شبَّ (قصي) قدم إلى مكَّة وتزوج ابنة سيد (خزاعة) آنذاك. وبعد فترةٍ استعان بإخوانه ورحمه من (كنانة) و(قريش)، وحارب (خزاعة) على ولاية البيت، وأراد إخراجهم من مكة؛ لأنَّه رأى أنَّه أحق بالوادي من (خزاعة) وأحلافهم من بني بكر.

لما علمت (خزاعة) ما يخطط له (قُصي)، استعدَّت لحربه، ومعها (بكر)، فقابلهم قُصيٌّ بجيشه فاقتتلوا قتالًا شديدًا في موضعٍ يقال له (الأبطح) قريب من مكة. فلمَّا كثرت القتلى من الفريقين تداعى الطرفان للصُّلح، واحتكموا إلى (يعمر بن عوف)؛ وهو رجلٌ من كنانة، فقضى بأن قُصيًّا أولى بالبيت من خزاعة، وأن على خزاعة أن تدفع دية من قتلته من جيش قُصيٍّ.

أصبحَ (قصيٌّ) سيدَ مكَّةَ ومن سَكَنَها من قريش، وتملَّك على قومِه فملَّكوه، وباتت له قيادة القوم في تحركاتهم وأسفارهم، وأصابَ كل شرفٍ في مكة؛ فكان هو حاجب الكعبة، لا يدخلها أحدٌ إلَّا بإذنه، وهو القائم على عنايتها وتنظيفها وكسوتها؛ وهذا ما تُسمِّيه العرب (السِّدانة)، وهو حامل لواء قريش، لا يُعقد إلَّا على عينه، وبنى دارًا لفصل الخصومات واجتماع القوم وسمَّاها (دار الندوة) وترأسها، فكان الناس لا يعقدون لواءً ولا نكاحًا إلا بها. ولم يكتفِ (قصيٌّ) بما أصاب من الشَّرَف، بل جعل إطعامَ الحجيجِ وسُقياهم مسئوليتَه طول أيام الموسم، وهذا ما تسميه العرب (الرفادة) و(السقاية).

بلغ (قصي) من السؤدد مبلغًا لم يبلغه غيرُه من (جرهم) أو (خزاعة)؛ فذاع صيتُه وسط العرب، وتميّز القرشيون به عن غيرهم.

كان من ولد قُصي، عبد الدَّار، وعبد العُزَّى، وعبد مناف؛ وقد بَلَغَ الأخيران شرفًا ورفعةً في حياة أبيهما، فأراد الأب أن يُلحِقَ ابنه الثالث بأخويه، فعهد إليه بكل أعماله كونه رئيسًا للقوم، وعليه أصبح لعبد الدّار القيادة والرفادة والسقاية والحجابة واللواء ودار الندوة، وكان هذا في حياة (قصي) وعلى عينه؛ فلمَّا هلك، حافظ (عبد شمس) و(عبد مناف) على

عهد أبيهما، ولم ينازعا أخاهما في شيء، وظلّ (عبد الدّار) يمارس ما خوَّله أبوه إلى أن ماتَ ثلاثتُهم.

بعد موتهم، هُجِرَت العادة، وخالفَ الأبناءُ عهدَ الآباء، وتنازعوا نزاعًا عظيمًا وانقسموا، فانقسمت قريشٌ تبعًا لانقسامهم.

نازَعَ بنو عبد مناف وهم (عبد شمس، هاشم، المُطَّلِب، ونَوْفَل) بني عبد الدّار على ما في أيديهم من وظائف الرياسة، ووَصَلَ الشقاقُ إلى الاستعداد للحرب، وكادت قريشٌ أن تتقاتلَ فيما بينها لولا أنَّهم ركنوا إلى التصالح على أن تنتقلَ القيادةُ والرفادةُ والسقايةُ إلى بني عبد مناف بن قصيٍّ.

ثم تقاسمَ بنو عبد مناف نصيبهم فكان لعبد شمس القيادةُ، ولهاشم الرفادةُ والسقايةُ.

هكذا كانت مكة؛ بيتُ اللهِ الحرامُ الذي بناه إبراهيمُ وإسماعيلُ عليهما السلام، وحَوْلَهُ أحفادُهم المتمثِّلون في بطون قريش المختلفة، ويسودهم بنو قصي، ويخلف بعضُهم بعضًا في هذا الشرف.

وأمَّا الطائف، فقد كانت قديمًا أرضًا لبني عمرو بن قيس عيلان، ثم غلبهم عليها بنو عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن. وكان بنو عمرو يُصيِّفون بالطائف ويُشتُّون بأرض نجد.

وكانت ثقيف تسكن حول الطائف، إلَّا أنَّهم رأوا من أرضها ما أعجبهم من طيب النبات والثمار، وكانوا في الأصل أهل زراعة وغرس. فقالوا لبني عامر: «إنَّ أرضَكم تصلح للزرع، وأرضنا لا تصلح إلَّا للضرع، ونراكم قد آثرتم الماشية على الغِرَاس، ونحن أناسٌ ليست لنا مواشٍ، فهل لكم أن تجمعوا الزرع والضرع بلا كُلفة، حيث تدفعون إلينا بلادكم هذه فنثيرها ونغرسها ونحفر فيها الأطواء، ولا نكلفكم مؤنةً ولا عمل، فإذا كان وقت إدراك الثمر كان لكم النصف؟».

فَوافَقَ بنو عامر على ذلك، وسلَّموا إليهم الأرض، فنَزَلَت ثقيف أرضَ الطائف، واقتسمت البلاد مع هوازن.

ظلَّت ثقيف حينًا من الدهر ملتزمةً بشرطها مع بني عامر بن هوازن، ومن جانبٍ آخر كان بنو عامر يمنعون ثقيفًا ممن أرادهم بسوءٍ من العرب. فلمَّا كثرت ثقيف وشرفت وصار لها مكانةٌ بين الأحياء غدرت بهوازن، وحصنت أرضها، وابتنت سورًا على حدودها داخل الطائف، ومنعت بني عامر وهوازن نصفَ الثمار! فحاولت هوازن أن تقاتلهم وتظفر بهم ففشلت.

كانت ثقيف تنقسم إلى بطنين: الأحلاف، وبنو مالك. فلما آمنت ثقيف هوازن، انقلبت على نفسها، فتحارب بنو مالك مع الأحلاف، ودارت بينهما أيامٌ مشهورة عند العرب، وظلوا كذلك ردحًا من الزمن حتى اصطلحوا، وخمدت الحرب في الطائف، وعاش فيها: بنو عامر من هوازن، وبنو الأحلاف وبنو مالك من ثقيف.

كانَ كُلُّ العرب الذين تجمعهم الجزيرة بين بحريها ينحدرون من أصلين لا ثالثَ لهما؛ الأصل الأول والأقدم هو (يعرب بن يشجب بن قحطان)(2)، وقد مَلَأَ بنوه اليمن ثم تفرَّعوا منه في حادثة السَّد كما ذكرنا، ويُقال لهم: (العرب القحطانية) أو (العاربة).

والأصل الثاني هو جُرهم أخو يعرب، وقد ملك بنوه الحجاز بعد جوارهم لهاجر ورضيعها عليهما السلام، وقد تزوج هذا الرضيع لما شبَّ امرأة جرهمية من الجيل التاسع تقريبًا لجرهم نفسه، وقد بارك الله في سلالة إسماعيل (عليه السلام) من ولده عدنان، فملأت جزيرة العرب من شرقها إلى غربها، وكانت الغَلَبَةُ من حيث التعداد لولدين من عدنان هما (مُضر)(3) و(ربيعة)(4). ويقال للعرب من ذرِّية إسماعيل (عليه السلام)، العرب المستعربة، ومعنى كلمة المستعربة، المختلطون من حيث النسب؛ إذ إن إسماعيل (عليه السلام) لم يكن عربيًّا في الأصل، لكنَّه تعرَّب بمخالطة جرهم.

(2) قحطان بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح.

(3) ومنه قريش.

(4) ومنه تغلب وبكر.

الفصل الثاني العرب البائدة

ثمَّة صنفٌ ثالث من العرب سَبَقَ الصنفين المذكورين في الفصل الماضي، وهذا الصنف لطالما ذُكرَ في كلامِ العرب وحكاياتهم وأشعارهم. فقد كان العرب يتحدثون دائمًا عن أقوامٍ سبقوهم، وسكنوا مواضع بعينها في الجزيرة، إلَّا أن نسلهم انقطع، وأُبيدوا عن بكرة أبيهم!

وقد ظلَّ الباحثون ردحًا من الزمن يُنكرون وجود العرب البائدة، ويرونها مجرد أساطير، وكان سندهم في ذلك هو عجزهم عن العثور على أسماء تلك الأمم في اللغات القديمة والكتب الكلاسيكية والآثار. ولكن بمرور الزمن، وتتابع رحلات البحث وسبر أغوار هذه المنطقة من العالم، بدا أنَّ هؤلاء المستشرقين كانوا مُتسرعين في حكمهم، حيث تمكن العلماء من العثور على أسماء بعض أقوام العرب البائدة، وآثارهم، وحل رموز بعض كتاباتهم أيضًا.

وقد ربطَ بعضُ الباحثين العرب بين أسماء قبائل العرب البائدة وبعض الأسماء المشابهة لها المذكورة في التوراة. ولعل هذا الربط كان ردة فعل طبيعية لإنكار بعض المستشرقين وجود تلك الأمم القديمة. ونحن هنا لا نحكم على هذا الربط، لكننا نرى ما رآه الطبري عندما قال في تاريخه: «فأمَّا أهل التوراة، فإنَّهم يزعمون ألَّا ذكر لـ(عاد) ولا (ثمود) ولا (هود) ولا (صالح) في التوراة، إلاَّ أنَّ شهرتهم عند العرب قبل الإسلام كشهرة إبراهيم (عليه السلام)».

أضف إلى ذلك أنَّ أحاديث العرب البائدة إنما هي أحاديث عربية، تحدَّثَت بها العرب، وأنَّ التوراة والكتب اليهودية ليست معنية إلَّا بشئون العبرانيين في المقام الأول، فهي ليست كتبًا تحصر تواريخ العالم القديم.

وأمم العرب البائدة هي: (عاد، وثمود، وطسم، وجديس، وأميم، وعبيل، وجرهم الأولى، والعمالقة وحضورا).

واختلف أهل الأخبار في الترتيب الزمني لشعوب العرب البائدة، فمنهم من قَدَّمَ طسم وجديس وعمليق وأميم على عادٍ وثمود، على أنَّ عادًا وثمودًا إنما هم أحفاد إرم بن سام بن نوح، بينما الآخرون هم أبناء لاوذ بن سام بن نوح.

ونحن نخرج من هذا الاختلاف باتباع نفس الترتيب الذي جرى عليه عُرْف الأخباريين، فنذكرهم كالتالي:

عاد:

كان من ذرية نوح (عليه السلام) رجلٌ اسمه (عاد)، فهو عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح، وكان لعادٍ هذا ذرية عظيمة انتشرت بأرضٍ مطلةٍ على البحر بين عمان وحضرموت بالأحقاف. اشتهر قوم عاد بطول قاماتهم وقوة بطشهم، فلمَّا غرتهم قوتهم، تجبروا وأفسدوا واستكبروا وأشركوا بإله أجدادهم الواحد، ولسان حالهم يقول: من أشدُّ منَّا قوة؟

يقال: إنهم أول من عبد الأصنام بعد طوفان نوح (عليه السلام)!

لمَّا زاد طغيانهم بُعِثَ فيهم نبيٌّ منهم، هو هود بن عبد الله بن رباح بن الجلود بن عاد، فدعاهم إلى التوحيد الذي تركوه عن قريب، وأن يتواضعوا ويكفُّوا عن ظلم الناس، فما كان منهم إلَّا أن كذَّبوه وردوا عليه دعوته. وبمرور الأيام أصابهم قحطٌ شديد، فقرروا أن يبعثوا منهم وفدًا إلى مكةَ يستسقون ويطلبون الماء من الواحدِ رب السماء!

لمَّا بلغ الوفد ظاهر مكة، نزلوا ضيوفًا على أصهارٍ لهم، ومكثوا شهرًا لا يفعلون شيئًا إلا التسامر وشرب الخمر على أنغام جاريتين مشهورتين تلقبان بالجرادتين، فلمَّا طال مكثهم وأنساهم اللهو غايتهم، اضطر مضيفهم إلى تذكيرهم بما دفعهم إلى القدوم إلى مكة في الأساس، فاستفاقوا من غفلتهم وقال قائلهم: «يا قوم، بعثكم قومكم يتغوَّثون بكم من البلاء الذي نزل بدياركم، فأبطأتم عليهم! فادخلوا الحرم فاستسقوا لأنفسكم وقومكم».

بعدما انتهى القوم من صلاتهم، ظهرت لهم سحائبُ ثلاث، بيضاء وحمراء وسوداء، ونادى مُنادٍ لا يُرى قائلًا: «اختاروا لأنفسكم وقومكم». فاختاروا السحابة السوداء ظنًّا منهم أنها الأكثر ماءً، فإذا بذلك الصوت مرة أخرى يقول: «اخترتم رمادًا رمددًا»!

بينما كان قوم عاد في ديارهم ينتظرون عودة وفدهم، أو الفرج من السماء، إذا بسحابةٍ سوداء ضخمة تطل على سمائهم، فلمَّا رأوها استبشروا، وظنُّوا أن وفدهم المبارك قد وصل صوته إلى السماء، وأن القحط لا علاقة له بعصيانهم هودا، وقالوا وهم يقفزون فرحًا: «هذا عارضٌ ممطرنا».

فاقتحمت السحابة مجالهم تجرها ريحٌ عاتيةٌ غاضبة، فلم تدع بالأحقاف أحدًا إلَّا أهلكته، فكانت تحمل الواحد منهم ثم تدُق عنقه في الأرض كأنها تغرسه! وتقتلع المساكن من أساسها وتدمرها وترمي بها. استمرت هذه المهلكة سبع ليالٍ وثمانية أيامٍ بلا انقطاع. ثم أقبلت طيورٌ سوداء فحملت الجثث، وألقت بها بعيدًا في البحر، حتى أصبح المارُّ على عاد لا يرى منها إلا بقايا مساكن القوم(5).

بينما كانت عادٌ تهلك، وهودٌ وأصحابه معتزلين الديار ولائذين بربهم في حظيرة متطرفة، كان الوفد قد خرج من مكة، وبلغهم الخبر، وعلموا أن قومهم هلكوا ونجا هودٌ وأصحابه، وأنَّ السحابة السوداء، كانت تحمل عذابًا أليمًا، ولا ماءَ فيها، وأنّهم اختاروا الهلاك لقومهم.

وصار شُؤم هذا الوفد مضربًا للأمثال، فكانت العرب إذا بعثت وفدًا قالت: «لا تكونوا كوافد عاد».

ومما ذكر عن عاد، أنها كانت مؤلفة من عدة بطون، منهم: رفد - زمل - صد - العبود.

وقد ورد ذكر عاد في شعر زهير بن أبي سلمى ومتمم بن نويرة وأمية بن أبي الصلت.

وكانت العرب ترى عادًا شعبًا ضاربًا في القِدَم، بل وتضرب به الأمثال في ذلك، فكان العربي إذا رأى أثرًا قديمًا أو أطلالًا قديمة لا يُعرفُ صاحبُها قال: إنها عادية. نسبةً لعاد.

ثمود:

ومن الأخبار التي تناقلتها العربُ وتحاكوا بها، خبرٌ آخر يشبه خبرَ قومِ عاد.

كان ثمود أبًا لذرية مشهورة، وثمود هذا هو ثمود بن جاثر بن إرم بن سام بن نوح. سكنت ذريته منطقةَ الحِجْر بين الحجاز والشام. لم يتميزوا بالطول والبطش كأبناء عمومتهم، بل تميزوا بطول العُمُر، حتى إنَّ بيوتهم كانت تهلك في حياتهم! الأمر الذي دفعهم إلى نحتِ الجبال واتخاذها مسكنًا.

ولمَّا كان القوم يعيشون في سعةٍ فإنهم قد فُتِنوا وضلُّوا عن عبادة الإله الواحد. فعاجلهم نبيٌّ منهم اسمه صالح بن عبيد بن أسف بن ماشج بن عبيد بن جادر بن ثمود، فاختلف الناس إزاءَ دعوته، فتبعه قلةٌ من ضعفائهم، وخالفه كبراؤهم.

لمَّا ألحَّ (صالح) في دعوته، طلب منه القومُ آيةً تثبت أنه نبيٌّ، وأنّه مؤيدٌ من هذا الإله الواحد الذي يزعم أنه بعثه.

في عيد أحد أصنامهم، وبينما الناس يمرحون، قام سيدٌ من سادات ثمود، وأشار إلى صخرة صمَّاء وقال لصالح: «أخرج لنا من هذه الصخرة ناقةً عشراء، فإن فعلتَ صدقناك واتبعناك». فأخذ صالحُ عليهم المواثيق بذلك، ثم أتى الصخرة وصلَّى ودعا ربه فإذا بها تتمخض كما تتمخض الحامل حتى انفجرت عن ناقةٍ عظيمةٍ ما لبثت أن وَلَدَت وليدًا يماثلها في العِظَم. فلمّا رآها الحضورُ آمن بعضُهم وكَفَرَ الباقون.

وقال لهم صالحُ: إنَّ الماءَ منذ اليوم قِسمةٌ بينهم وبين الناقة، لهم يوم ولها الآخر، وأنَّ الهلاكَ مصيرُهم إن مسَّها أحدٌ بسوء.

ثم إن رجلًا من ثمود اسمه (قدار بن سالف)، جلس مع نُدمائه ذات ليلةٍ يشربون الخمر. فلمَّا اختمرت عقولهم افتقدوا الماء، ثم تذكَّروا أن اليومَ يومُ الناقةِ ولا مَورد لهم، فاستشاطوا

غضبًا وحرَّضَ بعضُهم بعضًا على قتل الناقة. فذهبَ إليها (قدارٌ) هذا فَعَقَرَها!

لمَّا أدركَ خبرَ الناقةِ صالحٌ، واجه الناسَ وتوعدهم بهلاكٍ عظيم يأتيهم بعد ثلاثة أيام، وآيتُه أن يصبحَ الناسُ في اليوم الأول ووجوههم مصفرَّة، ويصبحوا في اليوم الثاني ووجوههم محمرَّة، ويصبحوا في اليوم الثالث ووجوههم مسودَّة.

فلمَّا مرَّت الساعات وأصبحوا في اليوم الأول ووجوههم قد تلبَّسَها الصفار وتحققَ فيهم قول صالح، أصابهم رعبٌ شديد، وعلموا أنهم هالكون لا بُدَّ، حتى إنهم في اليوم الثالث الذي اسودَّت فيه وجوههم تكفَّنوا وألقوا بأنفسهم إلى الأرض وأبصارهم حائرة يُقلِّبونها بين السماء والأرض لا يدرون من أين يأتيهم العذاب!

فلمَّا أصبحوا في اليوم الرابع أتتهم صيحةٌ من السماء قطَّعت قلوبهم في صدورهم وصَرَعتهم على هيئتهم.

والروايات العربية القديمة التي ذكرت ثمود أقلَّ من قرينتها التي ذكرت عادًا، ومع ذلك ذكر الطبري أن «من يظن أنَّ العرب قبل الإسلام لم تكن تعرف عادًا وثمود فإنه على وهمٍ وخطأ». وقد وجد اسم ثمود في بعض النصوص الآشورية، ويبدو أن ثمةَ حروبٍ وقعت بين الآشوريين وبين طرفٍ آخر فيه ثمود.

طسم وجديس:

ويرى بعض أهل الأخبار أن (طسم) و(جديس) كانا من أهل الحضر، وأنهما تركا أثرًا يدل على ذلك، وأنهما أثارا الأرض وعمراها.

طَسَم بن لوذ بن أزهر بن سام بن نوح، وابن عمه جديس بن عامر بن أزهر، عاشت ذريتهما في مكان في جزيرة العرب يقال له (اليمامة).

ومن قصصهم المذكورة أنه في بعض أيامهم تسلَّط عليهم ملِكٌ ظالمٌ من (طسم) اسمه (عمليق). ورغم اشتهار الرجل بقلةِ العقل وسوء الحكومة؛ فإنه في يوم من الأيام لجأت إليه امرأةٌ تدعى (هزيلة) تشتكي زوجها الذي طلقها ويريد أن يأخذ ولدها ويهجرها.

فلمَّا امتثلَ الاثنان أمام الملك قالت (هزيلة): «حملتُه تسعًا ووضعته دفعًا، وأرضعتُه شفعًا، حتى إذا تمت أوصاله، ودنا فصاله أراد هذا أن يأخذه منِّي كرهًا ويتركني بعده ورهًا».

فقال الزوج: «أيها الملك، إنِّي أعطيتها مهرًا كاملًا، ولم أصب منها طائلًا إلَّا وليدًا خاملًا، فافعل ما كنتَ فعلًا».

فأمرَ الملكُ أن يُؤخذَ منهما الولد فيُضم إلى غلمانه، وأن يُباع الزوجان، على أن يُعطى الزوج خُمس ثمن الزوجة، وأن تُعطى الزوجة عُشر ثمن الزوج!

فقالت الزوجة (هزيلة):

أتينا أخا طسم ليحكم بيننا

فأنفذ حكمًا في هزيلة ظالمًا

لعمري لقد حكمتَ لا متورِّعًا

ولا كنتَ فيمن يبرم الحكم عالمًا

ندمتُ ولم أندم وإنِّي بعثرتي

وأصبح بعلي في الحكومة نادمًا

فلمَّا بلغ الملكَ قولُها، غضب وأخذ جديسًا كلها بجريرتها، فأمرَ بألّا تتزوج بِكرٌ من جديس حتى تأتيه فيفضَّ بكارتها بنفسه!

وظل الملك يمارس هذا الفحش مع عرائس جديس حتى ثار القوم ضده، وكمنوا له ليقتلوه وينفضوا عنهم لباس العار والمهانة، فلما نجحوا في خطتهم وقتلوه ونفرًا عظيمًا من (طسم)، هرب الباقون إلى ملك اليمن ليستنصروه، فأجابهم، وخرج معهم بجيش عظيم يقصد جديسًا.

بينما الجيش في الطريق، أتى رجلٌ من جند (طسم) إلى الملك وقال له: «إنَّ لي أختًا تزوجت في جديس اسمها اليمامة، وإنها لتبصر الراكب من مسيرة ثلاث! وإني أخاف أن تنذرَ القومَ بقدومنا». فأمرَ الملكُ سائر الجند أن يتخذ كل واحدٍ منهم شجرةً يستتر بها، ففعلوا.

فلما صار بين الجيش ومساكن جديس ثلاثة أيام، رَصَدتهم (اليمامة)، وأنذرت قومها، إلَّا أن القوم كذبوها حتى دخل عليهم الجيش فأبادوهم، ثم أمرَ الملك باليمامة ففقأ عينها!

فيقال: إن ذلك الموضع من الجزيرة سُمِّيَ اليمامة بسبب شهرةِ تلك المرأة، ويقالُ: إنها أول امرأة تكتحل.

ويقال: إن ثمة حرب وقعت بعد ذلك بينهم وبين أحد تبابعة اليمن، أدت إلى إهلاك (طسم) و(جديس) جميعًا، وفرغت اليمامة حتى سكنها بعد ذلك (بنو حنيفة).

ومن الحكايات التي كانت تجري على ألسنة العرب، حكاية (كلب طسم)؛ فقد قيل: إن رجلًا من طسم كان يبالغ في رعاية كلبه؛ فيسقيه اللبن، ويطعمه اللحم، ويُسَمِّنه، ويرجو أن يُصيب خيره ويحتمي بحراسته يومًا ما. فجاع هذا الكلب يومًا، وقد اعتاد على اللحم، فأكلَ صاحبَه. فقالت العرب في أمثالها: «سَمِّن كلبَكَ يَأْكُلْكَ».

أميم:

قيل: هم من نسْل (لاوذ بن عمليق). ولا يذكر التاريخ عنهم الكثير من الأخبار. ومنهم (وبار)؛ وهي قبيلة لها ذكرها عند العرب، ويقال: إنهم نزلوا بين اليمامة والشحر، وأنهم هلكوا تحت رمال تلك المنطقة.

ويبدو أن هذه المنطقة هي الربع الخالي اليوم، أو تشبهها على الأقل؛ لأن أهل الأخبار يصفون موضع (وبار) بأنه كان صحراء مُرعبة وشاسعة. ولعلَّ هذا المكان المرعب هو السبب في بعض الأساطير المذكورة التي تقول: إنَّ بني وبار هؤلاء كانوا بشرًا ثم مُسِخوا نسانيس، وأصبح للرجل منهم نصف رأس ونصف وجه وعينٌ واحدة!

عبيل:

وهم أول من خطا على أرض يثرب، ويقال: إن يثرب سُمِّيت باسم رجل منهم هو (يثرب بن باثلة بن مهلهل بن عبيل).

جرهم الأولى:

وهم غير جرهم القحطانية التي ذكرناها في الفصل الماضي، وقيل: إنهم كانوا في عهد عاد وثمود، وأنهم أبادهم القحطانيون.

العماليق:

هم بنو عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح، وكانوا أُممًا كثيرة، سكنوا في أماكن متفرقة، وزعم بعض أهل الأخبار أنهم كانوا في زمن موسى (عليه السلام)، وأنهم هم من أخرج (عبيلًا) من يثرب وألحقوهم بالجحفة. ومن العماليق مَنْ سكن صنعاء قديمًا قبل أن تسمَّى بهذا الاسم، ومنهم من سكن الحدود بين مصر وفلسطين.

حضورا:

وهم قومٌ سكنوا مكانًا يُقال له: الرَّس، واختلف أهل الأخبار في موضعه، وذكر التاريخ أنهم كانوا أصحاب بطشٍ وشدةٍ، وأنهم قتلوا نبيًّا بُعث فيهم، وأنَّهم كانوا على عهد (بختنصر)

حين غزا العرب، بل قيل: إن (بختنصر) غزا العرب ليصل إليهم.

ووفقًا لحكايات العرب وأشعارهم، فبجانب العرب العاربة والعرب المستعربة هذا هو الصنف الثالث منهم، عربٌ بائدة(6)!

(5) هلكت عاد ولم يبقَ منهم إلَّا الذين نجوا مع هود (عليه السلام). وقيل: نجا بعضُ الوفد أيضًا، وهؤلاء هم نواة (عاد الثانية). قال الطبري: «وبقيت عاد الثانية قائمة إلى أن تغلبت عليها قبائل قحطان، ثم انقرضت وبادت».

(6) اختفاء هذا الصنف من العرب لا يعني الهلاك فقط، لكنه يعني اختفاء النسب نفسه في أنساب أخرى، فإنَّ القلة من القوم إذا اندمجوا مع غيرهم وخالطوهم وساكنوهم ينتسبون إليهم بمرور الزمن.

الفصل الثالث لسانُ أهلِ الفصاحةِ

لا شكَّ أنَّ اللغةَ ناتجٌ من نواتج الاجتماع، وهذا قد يعطي انطباعًا أنَّ الإنسانَ تكلَّمَ عندما خالط غيره من نوعه. لكنَّ هذا الانطباع خاطئ بالكلِّيَّة، فاللغةُ منتجٌ عزيزٌ تحتاج إلى ما لا يعلمه إلَّا الله من الأزمان حتى تتبلور وتعطي الدلالات الواضحة التي لا لبس فيها كما تراها اليوم.

لذلك فإنَّ الباحثين في هذا المجال انقسموا إلى قسمين في جوابهم عن سؤال: كيف وصل الإنسان إلى اللغات؟ القسم الأول رأى أنَّ الإنسان كان مُحاطًا بالسكوت المطلق، ثمَّ أوحى الله إليه باللغةِ فتكلَّم. ومن أعلام هذا الرأي (أفلاطون)، وأخذ به من علماء العرب: (ابن فارس) و(الأشعري)(7).

أمَّا القسم الثاني، فإنَّه يرى أنَّ وصول الإنسان للغة كان عملية طويلة جدًّا، وهي تشبه إلى حدٍّ ما من الناحية الفلسفية، رحلة الطفل حتى يتمكن من الكلام بلسان قومه. مع الأخذ في الاعتبار بأنَّ الطفل في أثناء هذه الرحلة، إنما كانَ مُقلِّدًا ومحاكيًا. لكن الإنسان الأول لم يجد من يحاكيه إلَّا أصوات الجمادات والحيوانات؛ لذلك كانت الرحلة على مستوى مختلف تمامًا من رحلة الطفل.

على هذا الأساس يرى أصحاب هذا الرأي أن الإنسان بدأ أولًا بإخراج أصواتٍ تشبه الأصوات التي يسمعها حوله وفي بيئته، ثم بدأ يتطور في استخدام هذه الأصوات التي هي مادة اللغة، فصار يُخرج ألفاظًا أوليَّة من صوتين من الأصوات السهلة كأصوات حروف اللِّين، ثم أخذ يتطور في المخارج وعدد الأصوات شيئًا فشيئًا، وهكذا.

ولَمَّا كانت «اللغة بنت الاجتماع» كما قال (الرافعي)، فإن تشعب الجماعات يؤدي إلى تشعب اللغات. وقبل أن تظن أننا بصدد التكلم عن اللغة التي تكلم بها (آدم)، فاعلم أن القطع بأن لغةً ما كانت هي تلك اللغة الأم أمرٌ من المستحيلات. إنَّ أقصى ما يمكن أن نصل إليه ونقطع به، هو مجموعة من اللغات القديمة التي نردُّ إليها اللغات المعروفة.

على هذا، فإن المتخصصين ردُّوا اللغات إلى: آريَّة وساميَّة وطورانية. وما يعنينا هنا هو اللغات السامية التي تنسب إلى (سام بن نوح)، وهي الآرامية والعبرانية والعربية. ويرجح المتخصصون أن اللغة العربية إنما اشتُقت من اللسان البابلي القديم، حيث وجدوا تشابهًا كبيرًا بين اللغتين، ووجدوا كلمات متماثلة في كلتيهما، واكتشفوا أن اللغتين متشابهتان في حركات الإعراب!

خرج من الدولة البابلية أقوامٌ ونزلوا أرض اليمن، ثم استمرت لغتهم تتباين عن البابلية حتى لم يعد من الشبه بينهما إلَّا أثر الدلالة التاريخية فقط. ثم قامت الدولة السبئية في اليمن، وفيها القحطانيون، ومنهم خرجت العربية في طورها الأول.

ثم هاجرت قبائل قحطان، وتفرَّقت في الجزيرة بعد حادثة السد.

بعد ذلك تعرَّضت اللغة العربية لمراحل من التهذيب، فزادت في كل مرحلةٍ نُضْجًا واستقلالًا. وكان أول هذه المراحل هو نُطق إسماعيل (عليه السلام) بها. حيث استغلَّ ما وَهَبَهُ الله من رجاحة العقل وحُسْن البيان، واستعمل العربية التي أَتَتْ بها جرهم، وخلط بها من لغته الأصلية، فانطلق لسانُه بألفاظ أكثر مرونة وأوضح وأوسع مذهبًا، فأخذ الناس عنه العربية، وقد هُذِّبت بلسانه.

بعد ذلك تشعب أولاد بني إسماعيل، وامتلأت بهم الجزيرة، وكان هذا الانتشار هو المرحلة الثانية من مراحل تهذيب العربية، حيث اعتمدت اللغة على ذاتها، واستقلت تمام الاستقلال عن أصلها الذي اشتُقَّت منه، وصارت تأخذ من نفسها لتتحسن وتتجوَّد؛ ومما ساعد على ذلك، وأكسبها هذه المرونة، عدم وجود كتابة؛ حيث إن اللغة إذا كُتبت أُسِرت وصارت حبيسةً لرموزها، وبات تطورها صعبًا.

لَمَّا تفرقت القبائل العدنانية، أخذت اللهجات تختلف بمرور الزمن، لكنَّ القبائل لم تنعزل عن بعضها البعض، بل كانت في تقابل واختلاط مستمرٍّ، وعليه فقد صاروا يقارنون لهجاتهم ببعضها، بل ويأخذون من بعضهم ما يستحسنونه، وربما اندمجت لهجتان فخرجت منهما لهجة واحدة، وهكذا.

وكان العرب على حُسن سجيتهم، يريد أحدهم أن يختار للسانه ما يتناسب مع طبيعته، ويعكس وزنه ومكانته؛ لذلك صارت اللهجة بألفاظها مرآة يُرى فيها مقام صاحبها. فأصبحت القبائل تتفاضل وتتمايز في اختيار كلماتها وإحكام لغتها. وهذا الأمر الفريد أدَّى إلى تثقيف اللغةِ العربية وتأديبها بشكلٍ معجز.

كأنَّك أعطيت عددًا من الناس مادةً ما، ثم أمرتهم بأن تعمل كل جماعة منهم على هذه المادة ليخرجوا منها شيئًا نافعًا بعد سنين، فصارت كل جماعة تعمل على حِدَةٍ، على أنهم يتقابلون ويستعرضون ما أنجزوه فيما بينهم ويتأثرون بأفكار بعضهم، فإنهم سيعودون إليك بعد سنين وقد أخرجوا من تلك المادة نتائجَ مُذهلة، ولو اخترت أنت منها فإنَّك ستختار أجودها وأتقنها صُنعًا. هذا بالضبط ما حدث لمادة العربية في هذه الفترة.

حيث تأتي كل تلك القبائل إلى قريش في موسم الحج، فيستقبل القرشيون هذا التمايز، ويأخذون من كل لسان ما يستعذبونه، فيستعملونه. فكأنهم يجعلون العربية لغةً منتخبة من عدة لهجات!

ثمَّ أضافت قريش للسان العرب ألفاظًا معربةً من بلاد أخرى اختلطوا بأهلها في رحلاتهم التجارية المشهورة. وهكذا قامت قريش بالمرحلة الثالثة من تهذيب العربية، فكانت مجمعًا للغة ولهجاتها في قلب الجزيرة.

في النهاية، ارتقت لغة العرب، وارتفعت أذواقهم، وسمت طبائعهم، حتى صار العرب لا يتكلمون إلَّا بأحسن الكلام وأبينه. وظلَّت اللغة في عملية ارتقاء سريع ومستمر بسبب تباريهم في تحسين لغتهم ومسابقاتهم في أسواقهم ومواسمهم.

يقول الرافعي: «ولا يسع المتأمل في الأدوار التي تعاقبتْ على قريش في تهذيبها اللغة، إلا أن يستسلم للدهشة، ويحار في أمرِ هذا التعاقب، فإنه كالسلم المدرجة، تنتهي الدرجة منها إلى الدرجة على نمطٍ من الرقي، إن لم يكن عجيبًا في تاريخ أمة متحضرة فهو عجيب في تاريخ العرب، ولا سيما إذا اعتبرنا مبدأ تلك النهضة، وأنها لا تتجاوز مئة سنة قبل الهجرة إلى مئة وخمسين على الأكثر؛ فلا بُدَّ من التسليم بأنها حادثة كونية من خوارق النظام الطبيعي، ظهرت نتيجتها بعد ذلك في نزول القرآن بلغةِ قريش، وهو أفصح الأساليب العربية بلا مِراء».

وَصَلَ العرب بلغتهم إلى لؤلؤةِ ثقافتهم وأعجبِ أعاجيبهم على الإطلاق، وهي قدرةُ هؤلاء القوم على أن يتكلمَ أحدُهم بكلامٍ موزونٍ مَقْفِيٍ مقصودٍ مُسَدّدٍ يخدمُ به غرضًا ما. فلا يوجد في تاريخِ الأممِ موهبةٌ تضاهي موهبةَ العربِ الشعرية. فقد برعوا في تَزْيين حروفهم وتنافسوا في بلاغتهم وفصاحتهم ووثقوا في (اللسان) ثقةً عظيمةً، فتفرَّدوا بكل علومِه من بيانٍ ومعانٍ ونظمٍ حتى تلمَّسوا عنان السماء بمنطوقهم. فإن الرجل ليقول الكلمةَ في سِياقٍ ما وهو يقصد عَكسَها بالضبط، أو يصرِّح بالْمُشبّه به ويضمر الْمُشبّه، ومع هذا لا يتخلَّف واحدٌ من السامعين عن فهم المقصود!

سُخِّرت كُلُّ تلك المهاراتِ والمعارف اللسانية لخدمة الشعر، حتى كان الشاعر قادرًا على أن يفعلَ الأفاعيل بنفوس سامعيه. فبالشعر تُثار الحروبُ وبه تُخمد، وبالشعر تُرفع الأقوام وبه تُحَطُّ. فالشعرُ أمضى شيءٍ في حياةِ العرب وأسرعُ طريقة لنقلِ الأخبارِ وحفظِ الآثار، فكان أثرُه على الناس أقوى آلاف المرات من أثر وسائل الإعلام اليوم.

فصارَ الناسُ يجلُّون الشعراء وأهل الخطابة، وكل من ينطلقُ لسانه بأبلغ الكلامِ وأجمعِه. يعرفونهم ويُعِزِّفون بهم، وينسبون قبائلهم إليهم، ويفتخرون بهم، وكانوا يضربون لهم قُببًا خاصةً في أسواقهم المشهورة، يستريحون فيها قبل أن يقومَ أحدهم، فيبدأ في قولِ أبياتِه فيأخذَ أذهانَ الناس بكلماته ورشاقتها وقافيته وحذاقتها. فيتلذذ الحاضرون بكناياته ومجازاته. وليس في وصفي مبالغة إذا قُلتُ إنَّ العربَ كانوا يتأثرون بالفصاحة والبيان تأثرَ الرجلِ بالخمر والْمُسكرات!

في النهاية صارَ للشعراء مكانةٌ لا تُقارن، فَخلَدت أسماؤهم وكلماتهم وحكاياتهم ومآثرهم، وعلقت في أذهان الناس فصارت لا تُنسخ، وربما عُلِّقت أيضًا على البيت العتيق ذاته، تقديسًا للكلمات وتخليدًا للأبيات. فعرف بها أهل الجزيرة تواريخهم ومشاهدهم، حتى صارت تلك القصائد بمكانة الدواوين عند فارس والروم!

وأصبحت أسماء الشعراء الأعلام، كالآثار والأهرام، فهذا امرؤ القيس بن حجر في كندة، تارةً يعبر عن نفسه -وعنك- إن طال به الليل بالهموم، فيقول:

وليلٌ كموجِ البحرِ أرخىَ سدولَه

عليَّ بأنواعِ الهموم ليبتلي

وتارةً يفخرُ بنفسِه وفرسه في تبكيرهم ورشاقتهم، فيقول:

وقد أغتدي والطيرُ في وكناتها

بمنجردٍ قيدِ الأوابد هيكلِ

والفرس المنجرد هو قصير الشعر، والأوابد هي ذكور الوحوش.

وهذا طَرفةُ بنُ العبد في بني بكر، يصفُ محبوبته، وصفًا رقيقًا، فيقول:

ووجهٍ كأنَّ الشمسَ حلَّت رداءها

عليه نقيُّ اللونِ لم يتخدَّدِ

ولم يتخدَّد يعني لم يذْبل.

وهذا لبيد بن ربيعة في هوازن، يترنَّم ناصحًا بالقناعة كل سامعٍ فيقول:

فاقنع بما قَسَمَ المليكُ فإنَّما

قَسَمَ المعايشَ بيننا علَّامُها

وهذا زهير بن أبي سلمى، واحدٌ من أحكمِ بني مُضَر، يقول:

وَمَنْ هابَ أسبابَ المنايا ينلنه

ولو رام أسباب السماء بسُلّمِ

ومن يكُ ذا فضلٍ فيبخل بفضله

على قومِهِ يُستغن عنه ويُذمَمِ

وهذا زياد بن معاوية، نابغةُ بني ذبيان، يؤنِّبُ قومَه على تجاهل نصيحته، في البُعد عن حِمَى النعمان بن الحارث الغسَّاني ومنها موضع يُسمَّى (أُقُر)، فيقول:

لقد نهيتُ بني ذبيان عن أُقُرٍ

وعن تربعهم في كلِّ أصفارِ

وقلتُ يا قومُ إنَّ الليثَ مفترسٌ

على براثنهِ لعدوةِ الضاري

وهذا ميمون بن قيس المشهور بأعشى بني بكر، يُذكِّرُ قومَه بشبابهِ فيقول:

فلئن لاحَ في المفارقِ شيبٌ

يالبكرٍ وأنكرتني الفوالي

فلقد كنتُ في الشبابِ أنادي

حين أعدو مع الصباحِ صِلالي

وهذا عمرو بن كلثوم، سليل أعز بيتٍ في بني تغلب، يفخرُ بقومهِ فخرًا عجيبًا، فيقول:

وأنَّا الحاكمون بما أردنا

وأنَّا النازلون بحيثُ شينا

لنا الدنيا ومن أضحى عليها

ونبطش حين نبطش قادرينا

والعربُ تتغنَّى بكلِّ ذلك وتحفظه(8).

إنَّ بيتًا واحدًا من الشعر كان كافيًا ليضعَ شرفَ قبيلةٍ ما، ومهما فعلوا فإنَّهم لن يردُّوا شرفَهم ورفعتَهم إلَّا بأبيات تُقارعُ البيتَ الأوَّل؛ لذلك كانت القبيلةُ من العرب إن نَشَأ فيها شاعرٌ واستشعروا نبوغَه، فرحوا به فرحًا شديدًا ومكَّنوه مكانةً عظيمةً وأغدقوا عليه الخير، فكأنَّهم يُشيِّدون به حصنًا منيعًا. وكانت القبيلةُ تفكِّرُ ألفَ مرة قبل أن تنالَ من قبيلةٍ أخرى تتحصَّنُ بشاعرٍ معروف، وإن نالت فإنها تسعى بكل الطرق الممكنة وغير الممكنة أن تقتل هذا الشاعر قبل أن يتكلم ويُسمَع، وإن أسروه ربطوا لسانه وكمَّموه. ففي واحدة من أجمل مراثي العرب المشهورة، يقول (عبد يغوث بن الحارث) وهو يرثي نفسَه:

أقول وقد شدُّوا لساني بنسعةٍ

أمعشر تيمٍ أطلقوا لسانيا

كان هذا الرَّاثي أسيرًا، ومن أسَرَهُ يعلمُ أنَّه شاعر، فألجموه بشريط عريض حتى لا يقول فيهم شيئًا، ثم أعطوه فرصة ليرثي نفسه قبل أن يقتلوه فقال القصيدة المشهورة (ألا لا تلوماني) وبها البيتُ المذكور.

قد يسيطر عليك الآن السؤالُ الآتي: كيف كان العرب يحفظون الأبيات من أوَّل مرة بهذه البساطة فيتناقلونها بسرعة؟ وسؤالك هذا جريمة في حقِّ العرب، والطبيعي أن تسألَ: هل كان أحدٌ منهم لا يحفظ بمجرد السماع؟

إنَّ أُمَّةَ العرب لم تكن تعرفُ الكتابةَ، التي هي أشهر وسائل حفظ النصوص عند كل الأمم.

لم تجد العرب وسيلة لحفظ النصوص والمآثر إلَّا الصدور، واعتمادُهم على صدورِهم جعلهم أحفظَ الأمم؛ لأنَّ حياةَ الفرد منهم كلها مجرد تدريب عملي على تنشيط الذاكرة والاعتماد عليها كُلِّيًا. وهكذا أصبحَ لدى العرب أأمن وسيلة حفظ لأي نص؛ لأنَّ الكتابةَ تجعلُ النَّصَّ عُرضة للكثير من الأضرار كالاهتراء والقِدَم والمحو والتزييف والنهب. كما أن النصوص المكتوبة تصبح بعد سنين مجرد آثار، وإن شئتَ فقُل حفريات، أمَّا حفظ النصوص في الصدور فيبقيها رطبة كما هي كأنَّها لم تتسنَّه بالسنين. فالنص المحفوظ المنقول شفاهةً من جيلٍ إلى آخر أوثق من النص المكتوب الذي يعجز بمرور السنين وربما يموت.

وبالكلام عن الكتابة، وجب علينا أن نشير إلى الخط العربي تاريخيًّا كما أشرنا إلى اللغة وتطورها.

على عكس اللغة، فإنَّ الكتابة ليست من ضروريات الاجتماع؛ لذلك فمن العادي في تاريخ الأمم أن تسبقَ اللغةُ المحكمةُ الكتابةَ، وبعض الأمم لم يكن لها خط أصلًا. أمَّا العرب، فقد تفوقوا في صنعتهم اللغوية بالشكل المدهش الذي ذكرناه، في حين لم يكن لهم خطٌّ مستخدم بين الناس على أغلب ظنون المحققين!

وقد تعمدتُ أن ألصقَ كلمةَ ظنون بكلمة المحققين؛ لأنَّ أقوالهم وآراءهم تضاربت وتباينت حتى صارت مجرد ظنون ومحاولات تفسيرية واهية، حتى قال قائلهم: إنَّ الخط العربي كان أصله آدم (عليه السلام)!

والحقُّ أنَّ البحث في أصل الخط العربي ورحلته داخل جزيرة العرب أمرٌ معقدٌ وصعبٌ فضلًا عن قلةِ الموارد التي يستمد منها الباحث. يقول اللغوي البارع عبد الصبور شاهين:

«مشكلةُ الخط العربي مشكلة في التاريخ مُعقَّدة، تناولها كثيرٌ من المؤرخين، بالروايةِ تارةً وبالتخمين تارة، ويرجع ذلك إلى أن تواريخ الشعب العربي في الجاهلية لم تُقيد كتابةً، وكل ما ورد منها نتفٌ يسيرة جدًّا، أثبتها الشعراء في قصيدهم، أو تناقلها الرواةُ محرفةً مزيدة على مَرِّ الأجيال، إلى أن جاءت إلينا غامضة متناقضة».

ومع ذلك فإنَّا نذكر ما تواطأت عليه الروايات وأقوال المحققين وأهل الأخبار، فنقول: إن المصدر الأول للخط العربي هو (الأنبار)، وأن الخط العربي دخل مكة على يد حرب بن أمية بن عبد شمس.

وأمَّا انتشار الكتابة في كل أنحاء الجزيرة، فمن المستحيل تحديد زمنه، ويبدو أنَّ الخط العربي في طوره الأول استُعمل في الأنبار والحيرة واليمن، وكان ذلك بوقت ليس بالقليل قبل أن يستعمله باقي الناس في سائر أحياء الجزيرة.

ولا بُدَّ أن نشير -قبل أن ننهي الكلام في هذا الباب- إلى أن بعض المتخصصين تبنَّى مذهبًا غريبًا مفاده أنَّ العرب كانوا يعرفون الخط ويكتبون قبل الإسلام بحوالي ثلاثة قرون! وهذا رأيٌ غريب عن معظم الروايات التي تكلمت في ذات الموضوع، ومع ذلك فقد يصح هذا الأمر في حق أشخاصٍ معدودين أو نواحٍ معينة في أطراف الجزيرة كالمواضع الثلاثة التي ذكرناها.

(7) استنكرَ الرافعي هذا الرأي ووصفه بأنَّه نوعٌ من التقوى التاريخية.

(8) هؤلاء السبعة هم أصحاب المعلقات في اختيار صاحب جمهرة أشعار العرب، والأبيات المذكورة من معلقاتهم.

الفصل الرابع شِق وسطيح

لعلَّ سطورَ الفصلِ الأول تُوحي إليك بأن مكَّةَ كانت أرضًا حضرًا لا يهجرها سُكَّانُها رغبةً عنها إلى غيرها، وهذا صحيح، ومثلها في ذلك الطائف ويثرب واليمن. لكنَّ العربَ كُلَّهم لم يكونوا أهلَ حضر، بل كان معظمهم يترحَّلون من مكانٍ إلى آخر مُتتبِّعين أماكن المياه، وهذا الصنف من العرب، يُقال لهم (أعراب)؛ فهم يختلفون عن أهل الحضر في أنَّهم أكثر بداوةً وقسوةً في معيشتهم وقولهم.

قال الرافعي في (تاريخ آداب العرب):

«فمن نزل البادية أو جاور البادين، فظعن بظعنهم وانتوى بانتوائهم، فهم أعراب. ومن نزل بلاد الريف واستوطن المدن والقرى العربية وغيرها مما ينتمي إلى العرب، فهم عرب».

وأمَّا كلمة العرب ذاتها، فإنَّها تشير في اللغات السامية إلى البدو والبادية، ولَمَّا كانت الجزيرة في مجملها أرضًا مقفرة، فقد استحق ساكنوها هذا الاسم.

معايش القوم:

اشتغل العرب بالتجارة التي مثَّلت جُلَّ حياتهم الاقتصادية، فكان لهم أسواق عظيمة ومشهورة يجتمعون فيها. ويمكن تقسيم أسواق العرب إلى أنواعٍ ثلاثة:

أولًا: أسواق قائمة طول أيام العام تقريبًا، وهي تشبه إلى حدٍّ كبير، أسواقنا اليوم التي ينتقل التجار بينها يومًا بيوم، فتجد أحدهم يأخذ سلعته ليعرضها في سوق السبت في منطقة كذا، ثم يذهب بها في يوم الأحد إلى سوقِ كذا.

ذلك النوع من أسواق العرب كان مُشابهًا لهذه التي نشهدها اليوم؛ لذلك فإن التجار هم الذين ينتقلون بين الأحياء، ولا يحضر السوق إلا أصحاب الحي في الغالب.

يقول الرافعي: «وهي أسواقٌ كانوا يقيمونها في أشهر السنة، وينتقلون من بعضها إلى بعضها، فكانوا ينزلون (دومة الجندل) أول ربيع الأول، ثم ينتقلون إلى (هَجَر) بالبحرين في ربيع الآخر، ثم يرتحلون نحو (عمان) أول جُمادى الأولى...» وهكذا.

ثانيًا: أسواق كبيرة ثابتة، يحضرها كل العرب تقريبًا. ومنها سوق ذي المجاز، وكانت تقام بناحية عَرَفة، وسوق مِجَنَّة وتقام قرب أيام موسم الحج، ويحضرها خلقٌ كثير. ومنها أيضًا عكاظ، وهي أعظمُ أسواق العرب، رغم حداثتها النسبية(9). وكانت تُعقَد في وادٍ بين (نخلة) و(الطائف)، ومنها تنطلق العرب إلى حجها.

ثالثًا: أسواقٌ بين العرب والعجم. وتُقام في نواحٍ على حدود الجزيرة من ناحية فارس، ويحضرها العرب وغيرهم من الأعاجم، فيبيعون ويبتاعون من بعضهم، ومنها سوق (الأُبُلَّة) وسوق (الأنبار) وسوق (الحيرة).

بالإضافة إلى الأسواق، كانت القوافل تقطع مسافاتٍ كبيرةً بغرض التجارة؛ فمثلًا، سَنَّ هاشمُ بنُ عبد مناف لقريش رحلتين تجاريتين، واحدة إلى الشام وتكون في الصيف، والأخرى إلى اليمن وتكون في الشتاء.

قال الشاعر:

عمرو(10) الذي هشمَ الثريد لقومه

ورجالُ مكّةَ مسنتون عجافُ

سُنّت إليه الرحلتانِ كلاهما

سفرُ الشتاء ورحلةُ الأصيافِ

وكانَ العربُ يتداولون نقودَ فارس والروم، فلم تكن لهم عُملاتٌ مسكوكةٌ تُميِّزهم. وكانت ثروتهم تظهر فيما يملكه أحدهم من ماشية وسلاح وأدرع ونقود.

ولَمَّا استغنى العرب بالتجارة عن الصناعة، أصبح التصنيع بمُختلف درجاته أمرًا مُهملًا إلى حدٍّ بعيد، ليس هذا فحسب، بل إن الأعراب كانوا يحتقرون أصحابَ الحِرَف! وربما تُدهِشُك هذه الحقيقة؛ لكن ربما لديهم سببهم الخاص.

عَشِقَ هؤلاء القوم الحرية عشقًا غريبًا، فهم لا يطيقون الحياة في الحُجُرات والبيوت ولا أن يُقيِّدوا بحدود، ولا أن يُحجبوا عن السماء. والتجارة كانت دائمًا أسهلَ وأكسبَ وأكثرَ تحرُّرًا من قيود الصناعة وخدمة أصحاب الحِرَفِ لغيرهم.

وليست هذه النقطة الغريبة الوحيدة في ثقافة العرب، فثقافتهم كلها غرائب.

غرائب القوم:

إنَّ قومًا يعيشون في الصحراء ويكون جيرانهم الجبال والوديان والوحوش، لا بُدَّ أن يتميَّزوا عن غيرهم بالكثير من الصفات والطباع. وهذه الطباع مرتبطةٌ ارتباطًا وثيقًا بمدى صِلتهم بالطبيعة ومفرداتها.

تعاملَ العربُ مع بعض أصناف الحيوانات بشكل يومي تقريبًا، فهم يعتمدون في ثروتهم على بهيمة الأنعام، ويختالون ويتفاخرون بالخيل المسوَّمة، ولا يضربون في الأرض إلا بسفنهم ذات الأسنمة، ويواجهون في أسفارهم السباع والضباع والذئاب. فلا عَجَبَ في أن يخرج علينا أحدُهم قائلًا، إنَّه يتفرَّسُ لغةَ الحيوانات.

كان أميَّة بن أبي الصلت رجلًا من أشراف العرب، فهو ثقفيٌ وأخواله من قريش، بالإضافة إلى أنه شاعرٌ فحل.

مرَّ أميةُ وبعضُ صَحبِه يومًا على قطيع غنم قد شردت منه شاةٌ ومعها ولدُها، فكانت الشاة تلتفت إلى ولدها وتُخرج أصواتًا كأنَّها تستحثه وتستعجله، فقال أمية: «أتدرون ما تقول هذه؟».

قالوا: «لا».

فقال: «إنها تقول: أسْرِعْ حتى لا يأكلَك الذِّئبُ كما أكلَ أخاك العام الماضي».

فأسرع أصحاب أمية إلى الراعي فسألوه: «هل أكل الذئب لك حَمَلًا العام الماضي؟».

فقال: «نعم»!

ومرَّ أميةُ يومًا على امرأةٍ تمتطي بعيرًا، فهو يرفع رأسه إليها ويرغو، فأخبرها أمية بأن البعير يشكو مخيطًا محشورًا بين ظهره والرَّحْل. فنزلت المرأةُ وحلَّت الرحلَ فوجدت المخيط!

لعلَّك تتساءلُ الآن عن نهايةِ هذا الرجلِ العجيب!

بينما كان أميةُ يشرب مع بعض نُدمائه إذ هبط عليهم غرابٌ ينعق، ففاجأ أمية الجميع وقال للغراب: «بفيك التراب، بفيك التراب»! فاستعجب القوم وسألوه فقال: «إنَّ هذا الغراب يقول: إنِّي أشرب هذه الكأس التي بيدي وأموت». وبينما أمية يقول ذلك إذ نعق الغراب مرة أخرى، فقال أمية: «ويقول: إنَّ آية ذلك أنه يهبط على هذه المزبلة التي في الجوار فيأكل منها فتعلق عظمةٌ في حَلْقِهِ فيموت». فوقع الغراب على المزبلة وأكل فمات؛ فقال أمية عندها: «أمَّا هذا فقد صدق في نفسه، سننظر هل صدق فيَّ أم لا».

فلمَّا انتهى أميَّةُ من كأسه، اتَّكأ قليلًا، ثم مات!

تخيَّل أنَّك في سفرٍ طويلٍ لا يصاحبك فيه أحدٌ، وقد تخلَّى عنك القَمَرُ وأنت أحوج ما تكون إليه، فأرْخَى عليك اللَّيلُ سدولَه، فإذا رأيتَ ثمَّ رأيتَ ظلامًا دامسًا، فماذا ستخاف بجانب

عواء الذئاب وزئير السباع؟ وكيف بك لو رأيت خيمةً فأردت أن تستأنس بأهلها وتبيت ليلك فيها، وبعد أن أذن لك صاحبُ الخيمةِ، فأنست به وتسامرتما، قال لك إنَّه من الجنِّ؟

حَدَثَ ذلك كثيرًا للرجل العربي في سفره(11).

فكانَ العربُ إذا نزلوا واديًا استعاذوا بكبيره من الجنِّ!

وكان لهم حكاياتٌ وصراعات، حتى إنَّ لدينا بيتًا مشهورًا وصل إلينا، تنسبه العرب للجنِّ:

وقَبْرُ حَرْبٍ في مكانٍ قفْرٍ

ولَيْسَ قُرْبَ قَبْرِ حربٍ قَبْرُ

وقد قاله الجنُّ بعد أن اقتصّوا من (حرب بن أميَّة) وقتلوه، فَهُم يُعَايرونَه بأنَّه سيُدفَن بعيدًا وحيدًا كالصعاليك.

ومن غرائب العرب أيضًا، انتشارُ الكهانةِ في الجزيرة، حيث كان لها أعلامها وأصحابها المعروفون، يلجأ إليهم الناس إذا حاروا. حتى إن انتزاع مُلك اليمن من العرب الذي أشرنا له في مطلع الفصل الأول، تنبَّأ به كاهنان يُقال لهم (شق) و(سطيح) بناءً على تأويل رؤيا (ربيعة بن نصر) ملك اليمن يومئذٍ.

كان ربيعة بن نصر من أضعف التبابعة(12) الذين دانت لهم أرض اليمن، وفي ليلة من الليالي رأى رؤيا أفزعته وضربت بينه وبين الطمأنينة برزخًا، فلم يجد بُدًّا من أن يدعو كُلَّ من يطولُه مُلكُه من الكُهَّان والسحرة والعرَّافين.

فلمَّا أتوه، قال لهم: «إنِّي قد رأيتُ رؤيا هالتني».

فقالوا: «اقصُصْها علينا نخبرك بتأويلها».

فقال: «كلَّا، إن الذي يملك تأويلها ليعلمها من نفسه، ولا يحتاج إلى سماعها مني»!

فلمَّا تمسك بهذا الرأي العجيب واستعصى الأمرُ على مَنْ حضرَ من الكهان، قالوا له: «ليس لهذا الأمر إلا (شق) و(سطيح)».

كان (شق) و(سطيح) كاهنين معروفين، وكانا غريبي الخلقة، فـ(شق) هذا كان نصف إنسان! و(سطيح) كان رجلًا لا أطراف له، سطيحة وجهه في صدره!

كان هذان المرعبان هما الحل الوحيد أمام ربيعة بن نصر، فبعث إليهما. فقدم إليه (سطيحٌ) قبل (شق)، فقال الملك: «إنِّي قد رأيتُ رؤيا هالتني وفزعت بها، فأخبرني بها فإنك إن أصبتها، أصبت تأويلها».

فقال (سطيح): «إنك رأيتَ حِمَمَة خرجت من ظلمة، فوقعت بأرض تهمة، فأكَلَت منها كل ذات جمجمة».

اندهش ربيعةُ وقال: «ما أخطأتَ منها شيئًا، فما تقول في تأويلها؟».

قال: «أحلف بما بين الحرتين من حنش، لتهبطن أرضكم الحَبَش، فليملكن ما بين أبين إلى جرش»(13).

فقال ربيعة: «وأبيك يا سطيح، إن هذا لنا لغائظ موجع، فمتى هو كائن، أفي زماني هذا أم بعده؟».

قال: «لا، بل بعده بحين، أكثر من ستين أو سبعين يمضين من السنين».

قال ربيعة: «أفيدوم ذلك من ملكهم أم ينقطع؟».

قال: «بل ينقطع، لبضعٍ وسبعين من السنين، ثم يُقتلون ويُخرجون منها هاربين».

قال ربيعة: «ومن يلي ذلك من قتلهم وإخراجهم؟».

قال: «يليه إرم بن ذي يزن، يخرج عليهم من عدن، فلا يترك أحدًا منهم باليمن».

فقال ربيعة: «أفيدوم ذلك من سلطانه أم ينقطع؟».

قال: «لا، بل ينقطع».

قال: «ومن يقطعه؟».

قال: «نبيٌّ زكي، يأتيه الوحي من قبل العليِّ».

قال: «وممَّن هذا النبي؟».

قال: «رجل من ولد غالب بن فهر بن مالك بن النضر، يكون الملك في قومه إلى آخر الدهر».

فقال ربيعة: «وهل للدهر من آخر يا سطيح؟».

قال: «نعم، يومَ يُجمع فيه الأولون والآخرون، يسعد فيه الْمُحسنون، ويشقى فيه المسيئون».

قال: «أحقٌّ ما تخبرني؟».

قال: «نعم، والشفق والغسق، والفلق إذا اتسق، إن ما أنبأتك به لحقّ».

ثم قدم عليه (شق)، فواطأ كلامُه كلامَ (سطيح)، فوقعَ في قلب (ربيعة) ما قال الغريبان، فجهَّز بنيه وأهله، وبعث بهم إلى ملك من ملوك فارس، فأسكنهم (الحيرة)، فمن بقية ولد ربيعة بن نصر هذا، النعمان بن المنذر.

علوم البادية:

لم يشتهر العرب في قديمهم بأنَّهم برعوا في الكثير ولا القليل من العلوم، بل لم يبرع العربُ أصلًا في شيءٍ يجوز لنا أن نعُدَّه من العلوم إلَّا اللغة، أمَّا سائر ما برعوا فيه فمجرد مهارات اكتسوبها بحكم بيئتهم، ونحن نعدُّها مجازًا علوم القوم. ويمكن اختصارها في القيافة والاهتداء بالنجوم.

أولًا: القيافة

بَرَعَ العربُ في علمِ (القِيافة)؛ وهي اقتفاء الأثر وتتبُّعه. وكانت القيافة عندهم قسمين؛ القسم الأول: هو تتبُّع آثار الأقدام. والقسم الثاني -وهو الأغرب-: هو الاستدلال بأجزاء معينة من الجسم على صحة النسب وبطلانه! فمثلًا، كان (القائف) يستطيع برؤية قدم أحدٍ ما أن يعرف أباه بين مئة رجل.

ثانيًا: الاهتداء بالنجوم

لَمَّا كانت حياة العرب رهنًا بالماء، وأسفارهم رهنًا بنجوم السماء؛ فُرِضَ عليهم التمكُّنُ من مهارات التنبؤ بالطقس وفهمُ عالم السماء. فبجانب الاستدلال بالنجوم في أسفارهم، قَسَّمَ العربُ المنطقةَ التي تتقلَّب فيها الشمسُ إلى اثني عشر قسمًا، وسمّوا كل قسم بُرجًا، لكل برج شهرٌ كامل، وتخيلوا لهذه البروج أشكالًا واعتمدوها للتسمية، فأصبح لديهم الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت. ويُقال إنَّهم فعلوا ذلك بالنسبة للمجموعات الكوكبية التي يتقلَّب فيها القمر أيضًا.

(9) اتخذت عكاظ سوقًا بعد عام الفيل بخمس عشرة سنة.

(10) عمرو هو هاشم، وقد لُقِّبَ بهاشم؛ لأنه اشتهر بهشم الثريد وإطعامه لأهل مكة.

(11) ذكر صاحب (جمهرة أشعار العرب) رواياتٍ كثيرةً في هذا الموضوع، وضرب لها فصلًا خاصًّا بعنوان (باب في قول الجن الشعر على ألسنة الشعراء).

(12) تبابعة جمع تُبَّع، وهو الرجل إذا استقام له ملكُ الشحر وحضرموت من أرض اليمن.

(13) يقصد أرض اليمن.

الفصل الخامس شِيَمٌ وخِلال

كانت حياة العرب ممتلئة بالتناقضات رغم بساطتها، فقلَّما تجدُ قومًا يُقدِّسون الشيء وينتهكونه في ذات الوقت! والمتأمل في مجتمع العرب وثقافتهم، يرى هذا التناقض في كل مواقفهم تقريبًا، وستراهُ بنفسك في السطور المقبلة الممتلئة بالقصص والحكايات. وقد قسمنا فيها مجتمع العرب إلى: البيت، والمجتمع.

البيت العربي:

كان الزواج في مجتمع الجزيرة يتم بإذن وليِّ المرأة، فكان الرجل يخطب إلى الرجل ابنته ثم يُصدِقها ما اتفقوا عليه ثم يبني بها. ولم يكن من حقِّ المرأة أن تزوِّجَ نفسها أيًّا كانت سنُّها.

وخصائص هذا النكاح تختلف عن نكاح اليوم في عدة نقاط، منها: أنَّ العرب كانت تُعدِّد في الزوجات بلا حدود، وكانوا يجمعون بين الأختين تحت نفس الرجل، وكان أحدهم يتزوج امرأة أبيه إذا مات عنها، وكان الطلاق لا سقْفَ له، فللرجل أن يطلق المرأة ثم يراجعها كلما أحب!

بجانب هذا الزواج العادي، لم تكن الجزيرة تخلو من الدعارة والمجون والسِّفاح، وبعض العلاقات العجيبة التي كانت منتشرة على غرابتها. ويمكن جمع كل أنواع العلاقات التي كانت تجمع بين الرجل والمرأة في:

- **أولًا**: النكاح العادي الذي ذكرناه، وهو المشهور الذي يتزوج به أشرافُ الناس. ويكون الولد فيه ابن أبيه وأُمِّه بلا ريب.
- **ثانيًا**: نكاح الاستبضاع: وهو شيءٌ يشبه (تحسين السلالة)، حيث كان الرجل يرسل امرأته لرجلٍ آخر ليواقعها، فتحمل منه. ويكون الولد للزوج في النهاية.
- **ثالثًا**: نكاح الجماعة: وهو نوعٌ من السفاح، حيث يجتمع الرَّهط دون العشرة، فيدخلون على المرأةِ، كُلُّهم يصيبها. وكان الولد في هذه الحالة يُنسبُ للرجل الذي تختاره المرأة من أصحاب تلك الليلة، ولا يملك من تختاره إنكار هذه النسبة.
- **رابعًا**: نكاح السيوف: وهو نكاح الرجل للسبيَّة، وكان الولد في هذه الحالة لا يُنسبُ إلى الرجل، بل ويلحقه عارٌ طول حياته!

كانت الأسرةُ العربيةُ متماسكةً جدًّا، يُحترم فيها ذوو الأسنان. وهذا الاحترام يرجع لأسباب أخرى غير الكِبَر، فخُلُق الحلم كان عزيزًا في جزيرة العرب كلها، وهذا ما

أعطى كبار السن مكانةً خاصة، فالرجل العربي قد يتحوَّل إلى بركان ثائر بشطر كلمة يَظُنُّ أنها تنالُ من شرفه.

والمرأة هي (دُرَّة) الرجل؛ لذلك كان الشعراء إذا اختالوا بشجاعتهم ومآثرهم وجَّهوا كلامهم لنسائهم، فإنَّ رضا المرأة هو المطلوب، فإن شهدت له بالشجاعة أو غيرها من الشِّيَم الحسنة، فهو كذلك.

قال عنترة بن شداد العبسي في معلقته:

هلَّا سألتِ الخيلَ يا بنةَ مالكِ

إن كنتِ جاهلةً بما لم تعلمِي

يخبركِ منْ شهدَ الوقيعةَ أنني

أغشى الوغَى وأعفُّ عند المغنمِ

بل كانت المرأة أحيانًا تُشعل حربًا، وأحيانًا تخمدها، وستقرأ عن هذا في سطور هذا الكتاب.

لم تكن الأنثى تحظى بمكانة عظيمةٍ في قلب الرجل كزوجةٍ فقط، بل كانت مُمَكَّنَة كابنة أيضًا، ومع ذلك ففي الغالب، تمنَّى الرجل العربيُّ أن تكونَ ذريَّتُه كلها من الرجال؛ ذلك لأنهم يدفعون عنه، ويجعلونه أعزَّ نفرًا وأكثر نفيرًا. ومن هذا الباب انتشرت في قلةٍ من بعض قبائل العرب فعلةٌ شنعاء؛ حيثُ كانت الطبقات المنحطة في بعض بطون (تميم) و (أسد) يئدُون بناتهم خشية الفقرِ والعَيْلة(14). وكان الوأدُ ممقوتًا عند سائر العرب، وخاصةً وجهاء الناس وأشرافهم؛ لذلك كان (غالب بن صعصعة) -جد الفرزدق - يشتري البنات ممن يريدون وأدهُنَّ.

ويبلغ الرجل العربي أعلى مراتب الشَّرَف بإحدى خصالٍ ثلاث: إمَّا أن يكون شاعرًا فحلًا تخضع الرقاب لأبياته، وإمَّا أن يكون فارسًا مقدامًا له مآثرٌ في المعارك، وإمَّا أن يكون كريمًا يبذل للناس من نفسه ونفيسه.

المجتمع:

كان المجتمع العربيُّ مجتمعًا طبقيًّا من الطراز الأول، فبجانب أنَّهم يُسيِّرون عُرف الرِّقِّ -مثل كل الأمم المعاصرة لهم- كان مجتمعهم طبقيًّا على أساس النسب، فإن

طبقة الرجل مرهونة بشرَف نسبه؛ لذلك فمن عجائب العرب أن ترى فيهم الفقير واحدًا من الطبقات الراقية؛ لأن النسب عندهم كان أغلى من المال الجزيل.

أجلَّت العربُ الرَّحِمَ وألحقوا بها الجِوارَ والعهدَ؛ فإن أجار العربيُّ غَرِيبًا، فقال إنَّهُ في جواره، أو إنه ضيفه، علم الناس أن الاعتداء على هذا الغريبِ هو اعتداءٌ على من أجاره. وكذلك كان الحلفُ كافيًا ليجعل الحليف بمنزلة الأخ والعم، فما يسعُ الرجلَ يسع حليفَه.

ولعلَّ انتشار ثقافة التحالف بين قبائل العرب كان انعكاسًا لمحاولة الرجل العربي تأمين أهله وقبيلته؛ لأنَّ معظم بقاع الجزيرة كانت تحت وطأة قانون الغاب حرفيًّا، حتى إنَّ الرجل لو كان في سفرٍ ومعه أهله، قد يقطعُ عليه الطريق رجلٌ آخر ويقاتله على أهله وماله، فإن غَلَبَ العارضُ تُسبَى النساء وتُسلب الأموال!

كان الرجل يتسلَّى في أغلب أحواله بمُجالسة أقرانه في أنديتهم، وبالخمر والميسر، فقد كانت الخمرُ ممدوحةً في كل شعر العرب تقريبًا؛ وذلك أنَّها كانت تدفعهم للكرم. يقول عنترة بن شداد العبسي:

ولقد شربتُ من المُدامَةِ بعدما

رَكَد الهواجرُ بالمَشُوفِ المُعْلَمِ

بزجاجةٍ صفراءَ ذاتِ أسِرَّةٍ

قُرِنَت بأزهرَ بالشُّمال مُفَدَّمِ

فإذا سكرتُ فإنني مُستَهْلِكٌ

مَالِي وعِرْضِي وَافِرٌ لم يُكْلَمِ

وإذا صحوتُ فما أُقَصِّرُ عن نَدًى

وكما عَلِمْتِ شَمائلي وتكرُّمِي(15)

وقال عمرو بن كلثوم التغلبي:

ألا هُبِّي بِصَحْنِكِ فاصْبحِينَا

ولا تُبقِي خُمورَ الأَندَرِينَا

تَرَى اللَحِزَ الشَّحِيحَ إذا أمِرَّث

عَلَيْهِ لمالِهِ فِيهَا مُهِينَا

وكانوا ينفقون أموال الميْسِر على الفقراء والمُحتاجين.

وقبلَ أن تتزاحم عليك الصفات السيئة للعرب، يمكن أن نُجملَ معالي الشمائل الحسنة لهذا المجتمع في الصفات الآتية:

أولًا: القِرَى والكرم.

وهي من الأخلاق التي بالغ العرب في التخلُّق بها ومدحها وتقديرها، فمن الجميل في بيئة العرب أنَّ أحدهم لا تزداد مكانته بما يملك من أموال وثروة، بل كانت مكانة الرجل تُقاس بإنفاقه وكرمه، فكانوا يتسابقون في إطعام الفقراء وأبناء السبيل والحجاج. وكان أحدهم إذا جاءه زائرٌ وهو لا يملك إلَّا ركوبته، ذبحها ولا يبالي!

ومن مآثر العرب في الكرم، حكاية الأعشى والْمُحَلّق الكِلابي.

يقولون: إن المحلق هذا كان رجلًا أعرابيًّا خامل الذِّكر، لا يعرفه الناس، وليس له من الولد إلَّا بنات، وأنَّه كان فقيرًا لا يملك إلا ناقةً وبُردين يتقلب فيهما بين الناس. وفي يومٍ من الأيام مرَّ (الأعشى) الشاعر المعروف، في بعض سفره على منازل قوم (المحلق). وبالطبع تسابق الناسُ على ضيافته وقِراه.

وبينما كان (المحلق) يتسامع بما يتكلم به الناس عن نزول (الأعشى) ديارهم؛ إذ أتت إليه عمَّتُه ونصحته بأن يستغل وجود الرجل في منازلهم، فالأعشى لا يمدح أحدًا إلا رفعه، ولا يهجو أحدًا إلا وضعه؛ فهذه فرصة لن تُعوَّض. فقالت له: «اذبح له ناقتك وأعطه برديك، واقترض له زِقًّا من الخمر. فإنك إن فعلت واختلط في بطنه الكبد والسنام والخمر، والله ليرفعنَّكَ بشعره».

ظلَّت المرأة تنصح ابن أخيها وهو يتكاسل عن العمل، حتى بلغهم خبرُ ارتحال الأعشى. وفي حين ظنَّ (المحلق) أنه سيرتاح من تكرار تأنيب عمته له وستنجو له ناقته، قالت المرأة: «هذا والله أجود في القِرى؛ أن يبلغه قراه وهو في الطريق».

استسلم (المحلق) لحكمةِ عمَّتِه، وأرسلَ خادمه ليلحق بالأعشى حاملًا معه لحمَ ناقته وزق الخمر والبردين.

لم يدرك الخادمُ الأعشى إلّا وقد بلغ منزله. فأتاه وهو جالسٌ مع ندمائه فأخبره أنه خادم (المحلق الكلابي)، وأنَّ (المحلق) أراد قراه حتى إن كان قد ارتحل.

فلما رأى الأعشى ذلك، فطن للأمر، وعلم غرض (المحلق) من هذا الكرم. فأنف عن أخذ اللحم والخمر، وقال لأصحابه: «والله لئن اعتلج في بطني الكبد والسنام والخمر، لأقولنَّ فيه شعرًا».

ظلَّ أصحاب الأعشى به حتى قَبِلَ الوليمةَ والبردين. فلمَّا أكل وشرب، قال واحدة من أفضل أشعار العرب، ومنها:

أرقتُ وما هذا السُّهادُ المؤرقُ

وما بي من سُقمٍ وما بي معشقُ

ولكن أراني لا أزالُ بِحادثٍ

أغادي بما لم يُمسِ عندي وأُطرقُ

فإن يُمسِي عندي الشَّيْبُ والهمُّ والعَشَى

فقدْ بِنَّ مِنِّي والسَّلامُ تُفَلَّقُ

بأشجعَ أخَّاذٍ على الدهرِ حُكمهُ

فمن أي ما تجني الحوادثُ أفرقُ

فما أنتَ إن دامتْ عليكَ بخالدٍ

كما لم يُخلَّدْ قبلُ ساسا ومُورقُ

وظل يشدو بأبياته الخالدة تلك إلى أن قال:

لعمري لقد لاحت عيونٌ كثيرةٌ

إلى ضوء نارٍ في يفاعٍ تُحَرِّقُ

تشبُّ لمقرورين يصطليانها

وبَاتَ على النَّارِ النَّدَى والمُحَلَّقُ

يَدَاكَ يَدَا صِدْقٍ فَكَفٌّ مفيدةٌ

وأخرى إذا ما ضُنَّ بالزَّادِ تُنفقُ

فلمَّا سارت الأبياتُ بين جنبات الجزيرة، وتردَّدت على ألسنة العرب، علا شأنُ الرجل وارتفع، وصار له مكانة بين الناس، وضربوا به المثلَ في الكرم ولزم الناسُ غرس الأعشى، حتى قيل: إن المحلق بعد ذلك زوج بناته ومهر الواحدة منهن مئة ناقة على الأقل!

ثانيًا: الأنفة والإباء.

فالعربيُّ شخصٌ عزيزٌ لا يقبل أن ينالَ أحدٌ منه ما يكره، أو يقول ما يحط من مكانته، وإليك الحكاية الآتية:

عندما كان (عمرو بن المنذر) ملكًا لفارس على الحيرة، وفي أحد مجالسه سأل جُلَسَاءَه: «أتعلمون أحدًا في العرب يأنف أن تخدمَ أُمُّهُ أُمِّي؟».

قالوا: «لا نعلمه إلَّا أن يكون (عمرو بن كلثوم) التغلبي، فأُمُّهُ ليلى بنت (المُهَلهل) وعمُّها (كليب) وزوجها (كلثوم) وابنها (عمرو)». فأسرّها عمرو بن المنذر في نفسه.

بعد فترة، استسلم عمرو بن المنذر لشيطانِه فأرسل إلى عمرو بن كلثوم يستزيره وأمه.

قال عمرو بن المنذر لأمّه (هند): «إذا فرغ الناس، نَحِّي الخَدَمَ وحاولي أن تستخدمي ليلى، فمُرِيها أن تناولك الشيء بعد الشيء».

فَلمَّا لَبَّى عمرو بن كلثوم الدعوة واصطحب معه أمَّه ونزلا ضيوفًا على عمرو بن المنذر. أحسَن الأخير ضيافتهم. وبينما كان الرجال في مجلسهم والنساء في مجلسهنَّ بدأت هند في تطبيق خطَّة ابنها فقالت لليلى: «ناوليني ذلك الطبق». فقالت ليلى: «لتقم صاحبةُ الحاجةِ إلى حاجتها». فلمَّا ألحَّت عليها هند، صاحت ليلى: «واذُلَّاه يا آل تغلب!».

فانتفضَ عمرو بن كلثوم من مجلسه فتناول سيفًا فضرب به رأس ابن هندٍ لحظتها! ثم قال مُعَلَّقَتَه المشهورة؛ ومنها:

أبَا هِنْدٍ فلا تَعْجَلْ علينا

وأنْظِرْنَا نُخَبِّرْكَ اليَقِينَا

ألم ترَ أن تغلب بيت عِزٍّ

جبال معاقلٍ ما يُرتقينَا

وأيامٍ لنا غُرٌّ طوالٍ

عَصَينا المَلِكَ فيها أن نَدِينَا

بأيِّ مشيئةٍ عمروَ بنَ هندٍ

ترى أنَّا نكونُ الأَرْذَلِينَا

ورثتُ مُهَلْهِلًا والخيرَ منهُ

زُهيرًا نِعم ذُخرُ الذَّاخِرينَا

ومنَّا قبلهُ الساعي كليبٌ

فأيُّ المجدِ إلَّا قد ولينَا

ثالثًا: المضيُّ في العزائم.

كان العربي إذا عزم على فعل شيءٍ ما، لا يمنعه من ذلك إلَّا الموت، وخاصَّةً لو أشهدَ الناس على نفسه، وإن لم يمضِ فيما همَّ به، وخار عزمه ورجع، عُيِّرَ بذلك ولحقه وقومَه عارٌ أبديٌّ.

كان (المنذرُ بن ماء السماء) ملكًا على الحيرةِ عندما دبَّ الخلافُ بينه وبين (الحارث الغسَّاني) أحدِ ملوكِ الشام، فلمَّا لم يجد هذا الخلاف من يصلح بين أطرافه، تحولَ الأمرُ إلى الاستعداد للحرب.

فلمَّا التقى الجيشان، أرسَلَ الحارثُ إلى المنذر يقول: «إنَّا شيخانِ، فلا داعيَ لأن تهلك جنودي وجنودك، ولكن نقاتل عنهم بأنفسنا وأولادنا. فأخرج رجلًا من ولدِكَ يقاتل رجلًا من ولَدي، فمن قُتِلَ عوَّضه آخر، حتى إذا فنى أولادنا، خرجت أنا وأنت، فمن قَتَلَ صاحبَه ذهبَ بالملك».

فَوافقَ (المنذرُ)، وتعاهدا على ذلك.

ثمَّ إنَّ (المنذرَ) غَدَرَ وعَمَدَ إلى رجلٍ من شجعان جيشه وكبار قادته، وجعله يقف في مقدمة أولاده. فلمَّا آنَ أوانُ النزال، خرجَ رجلٌ من أولاد الحارث، وخرج له الرجل الغادر. فلما رآه ولدُ الحارث عاد إلى أبيه وقال: «إنَّ هذا ليس بابن المنذر، إنَّما هو عبدٌ عنده أو بعضُ شجعان أصحابه». فَظَنَّ الحارثُ بابنه الخَوَرَ وقال: «يا بنيَّ، أجزعت من الموت؟ ما كان المنذر ليغدر».

لم يكن الحارث ليتخيَّلَ أنَّ رجلًا شريفًا في العرب، يمكن أن يغدر.

فَعاد ولد الحارث، فقاتل الرجل الغادر، فقُتِل، وألقيت رأسه إلى أبيه. فأمرَ الحارث ولدًا آخر فخرج. فلمَّا رأى نِدَّه عاد إلى أبيه وقال: «يا أبتِ، هذا والله ليس بابن المنذر».

فقال الحارث: «يا بُني، ما كان المنذر ليغدر».

فَعَاد الولد، فقاتل فقُتِل.

ثمَّ إنَّ رجلًا من جيش المنذر آلمه الغدر، فقال للمنذر: «أيها الملك، إنَّ الغدر ليس من شيَم الملوك ولا الكرام، وقد غدرتَ بالرجل دفعتين». ثم ترك الجيش مغاضبًا والتحق بجيش الحارث، وأخبره بما فعل المنذر.

فتوقفَ القتال يومًا، ثم التقى الجيشان في اليوم التالي، واقتتلا قتالًا شديدًا، فقُتِلَ المنذر بن ماء السماء، وهُزِمَ جيشُه.

لَمَّا مات (المنذر بن ماء السماء) مَلَكَ الحيرة بعده ابنه (المنذر بن المنذر بن ماء السماء). وبمجرد أن استقام له الملك جمعَ عسكرَه، وسار إلى الشام طالبًا بثأرِ أبيه من الحارث الغسَّاني.

فشبَّتْ معركةٌ كبيرةٌ استمرَّت أيامًا، فَيَومٌ للحارث، ويومٌ للمنذر الموتور. فلمَّا رأى الحارث ذلك، نادى في الجند: «يا فتيان غسان، مَنْ قَتَلَ ملكَ الحيرة زوجته ابنتي».

فانتفض شابٌّ شجاعٌ من فرسان غسَّان يُدعَى (لبيد بن عمرو) فنظَر إلى أبيه وقال: «يا أبتِ، أنا قاتل ملك الحيرة أو مقتولٌ دونه». ثم أشهد الناسَ على ذلك، فَصارَ لا يملك لنفسه إلَّا المضي في عَزمِه.

فلمَّا اشتعل القتال، دَخَل (لبيد) بين الجيشين، باحثًا عن (المنذر)، وظلَّ يقاتل من يقابله، حتى وجده، فلمَّا رآه، أجهزَ عليه فقتَلَه. ثم عاد برأسه إلى الحارث. فقالَ له الحارث: «دونك ابنتي فقد زوجتكها».

فقال لبيد: «بل أعود إلى أصحابي، فأقاتل معهم، حتى إذا انتهى القتالَ عدتُ فتزوجت». فَعَزَم أمام الملك ألَّا يعود إلا وقد انتهى القتال.

رجع (لبيد) إلى القتال، ليجده قد بلغ من السفكِ عِتيًّا، حتى إنَّ الغبار قد سَتَر الشمسَ، وتحوَّل الميدانُ إلى أرضٍ ليلاء ترى الكواكب في سمائها! لكنَّ (لبيد) كان قد عزَمَ أمام الناس ألَّا يعود حتى يقاتل مع أصحابه.

مَضَى (لبيدٌ) في عزمه، ودخل المعمعةَ فقاتلَ حتى قُتِل. فلم يفز بعروسِه النسيبةِ من أجلِ عزمٍ عَقدَه فأمضاه!

ثم انتصر جيشُ الغساسنة على جيش المنذر، وصارت غسَّان تفتخر بهذه المعركة فخرًا شديدًا. وهذا اليوم يُسمَّى في أيامِ العرب (يوم مرج حليمة)؛ وهو من أشهر أيامهم.

رابعًا: الوفاء بالعهد.

وللعرب في الوفاء مآثر وأعاجيب، منها:

كانت (بكر) من أشهر قبائل العرب وأقواها إلَّا أنهم قد أُصِيبوا بلعنة الهرج والمرج والسفه، وغلب جهلاؤهم عُقلاءهم، وافتقدوا الحكمة وحُسْن السياسة، وضاعت الحقوق بينهم. فخرج منهم وفدٌ إلى أحد تبابعة اليمن يسألونه أن يملِّكَ عليهم ملكًا يسوسهم ويأخذ للضعيف من القوي. فاختار لهم تُبَّعُ رجلًا ليس منهم اسمه (حجر بن عمرو) آكل المرار الكندي، فكان نِعْمَ الْمَلِك، حَكَمَهُم فعدلَ، واستغنى فبذلَ، ووسع أراضيهم، وغلب بهم خصومهم.

لَمَّا مات (حجر بن عمرو)، خَلَفَه على القوم ابنه (عمرو بن حجر الكندي)، فسار على سبيل أبيه ولم يزد شيئًا، حتى لُقِّبَ بـ(المقصور)؛ لأنَّه اقتصر على ما كان يفعله أبوه. ثم مات (عمرو) وورث ملكَه ابنُه (الحارث).

عندما كان (الحارث) ملكًا على بني بكر، كان كسرى فارس واسمه (قباذ) يُبدِّل دين بلاده إلى الزندقة، ويدعو الملوك التابعين له إلى اتباعه في زندقته، وكان (المنذر بن ماء السماء) ملكًا عاملًا لكسرى على (الحيرة)، ولما بلغته دعوة (قباذ) رفضها، في الوقت الذي قبلها (الحارث بن عمرو) ملك بني بكر. فخلع (كسرى) (المنذرَ)، واستعمل مكانه الحارث.

فلمَّا مات (قباذ)، وصارت فارس في حكم (كسرى أنوشروان)، تبدَّلت الأحوال، وعادت فارس لدينها، وخلع (أنوشروان) (الحارث)، وأعاد (المنذر) إلى الحيرة،

وأرسله في جيش من تغلب وإياد ليقتلَ (الحارث).

طارد (المنذرُ) بجيشه (الحارثَ) ومَنْ معه، وجدَّ في طلبه، حتى لحق به وقاتله وأسر منه ولديه. وقتلهم في ديار بني مرينا، ففي ذلك يقول عمرو بن كلثوم التغلبي مفاخرًا:

فَآبُوا بالنِّهابِ وبِالسَّبَايَا

وأُبْنَا بِالملوكِ مُصَفَّدِينَا

ويقول امرؤ القيس وهو حفيد الحارث:

مُلوك مِن بني حُجرِ بن عمروٍ

يُساقونَ العشيَّةَ يُقتلونَا

فلو في يوم معركةٍ أُصيبُوا

ولكن في دِيارِ بني مَرينَا

ولم تُغْسَلْ جماجِمُهُمْ بِغسلٍ

ولكن في الدِّماءِ مُرَمَّلِينَا

تَظَلُّ الطَّيرُ عَاكِفَةً عَلَيْهِمْ

وتَنْتَزِعُ الحَوَاجِبَ وَالعُيُونَا

كان (الحارثُ) قد ملَّك ابنه (حجر) على بني أسد وغطفان، فظلَّ فيهم دهرًا، يحكمهم ويرسل إليهم رسلًا فيعودون بالإتاوة والهدايا. لكن رسل (حجر) تفاجأت في مرة باستقبال فاتر ووجوه غلب الحقدُ تعابيرَها. وكان الناس في أسد وغطفان قد ملُّوا حكومة حجر، فأرادوا أن يخلعوه، أو يقتلوه إذا بلغ الأمر. فلمَّا علم (حجرٌ) خرج إليهم بجيش كبير وسامهم سوء العذاب، وسَلَبَ منهم ثرواتهم، وشتَّت جمعهم.

لم تترك أسدٌ ثأرها، وظلت تتحين الفرصة لقتل (حجر) غدرًا؛ وبعد فترة نجح بنو أسد في ذلك، وقتلوا (حجر بن الحارث).

كان (حجر) قد كتب وَصِيَّتَه ودفع بها إلى رجلٍ من القوم وقال له: «إذا مِتُّ، فاذهب بكتابي هذا إلى أبنائي واحدًا تلو الآخر فاستقرهم، فأيهم لم يجزع فادفع إليه خيلي وسلاحي ووصيتي».

انطلق الرجل إلى أولاد (حجر)، وكان كلما أخبر أحدًا منهم الخبر جزع جزعًا شديدًا ووضع التراب على رأسه، حتى انتهى إلى امرئ القيس، وهو أصغر أبناء (حجر)، فوجده مع نديمٍ له يشرب الخمرَ ويلعب بالنرد. فقال له الرسول: «قُتِلَ حجر». فلم يلتفت إليه امرؤ القيس حتى انتهى من لعبه.

فلمَّا انتهى من لعبه وأخبره الرجل بالقصة كلها، قال امرؤ القيس: «الخمر والنساء عليَّ حرام حتى أقتلَ من بني أسد مئة وأطلق مئة». ثم شرد ببصره قليلًا قبل أن يقول بصوتٍ هادئ: «ضيَّعني صغيرًا، وحمَّلني دمه كبيرًا»(16). اليوم خمرٌ وغدًا أمْر.

ذهب امرؤ القيس إلى بكر التي حَكَمَهَا أجداده وإلى تغلب التي فيها أخواله، فاستنصرهم فأجابوه، فسار بهم إلى بني أسد فقاتلهم قتالًا شديدًا حتى فروا منه. لكنَّ معركة واحدة لم تكن كافية لشفاء قلب امرئ القيس الموتور، فأراد أن يطارد فلول أسد ويقاتلهم مرة أخرى، فتخلَّى عنه الناس من بكر وتغلب وقالوا له: قد أصبت ثأرك.

انطلق امرؤ القيس إلى أحد أصدقائه في حِمْيَر، فساعده بجيش من اليمن، فانطلق بهم إلى أسدٍ فظفر بهم مرة أخرى. وبينما هو في غمرة الانتصار هذه، تفاجأ بأن المنذر ملك الحيرة أرسل جيشًا يطلبه! فهرب وتفرق من كان معه ولكل منهم شأنٌ يغنيه.

ضاقت الأرض على امرئ القيس، فظلَّ ينتقل من منزلٍ إلى آخر، وجيش (المنذر) يتبعه، حتى قصد (السموأل بن عادياء) بتيماء، وكان (السموأل) يملك حصنًا عظيمًا، فأحسن استقبال امرئ القيس وأهله وأقامهم عنده. بعد مدة طويلة رأى (امرؤ القيس) أن الحل الوحيد أمامه هو أن يستنصر بـ(قيصر). وبالفعل أرسل (السموأل) إلى رجلٍ من الغساسنة يتوسط لامرئ القيس عند (قيصر)، ففعل الرجل الغساني، وسافر (امرؤ القيس) قاصدًا (قيصر) بعدما عهد بأهله وماله وأدرعه إلى (السموأل).

دخل (امرؤ القيس) على (قيصر)، فأكرمه قيصر، وأرسل معه جيشًا كبيرًا يحارب به (المنذر).

لَمَّا بلغ الخبر بني أسد، أرسلوا رجلًا منهم حتى يشي بامرئ القيس عند قيصر، ويوقع بينهم. لكن هذا الأسديّ عندما وصل إلى قيصر، كان امرؤ القيس قد فصل بالحيش بالفعل. لم ييأس الرجل الأسدي، حتى دخل على قيصر وقال له: «إن امرأ القيس

غويٌّ عاهر، وقد ذكر في أشعاره أنَّه كان يراسل ابنتك، والعرب تتغنى بذلك». فانقلب قلب قيصر على الفور، وأرسل إلى امرئ القيس بهدية!

كانت الهدية حُلَّةً منسوجة بالذهب لكنها مسمومة. ومعها كتاب يقول: «إني أرسلت إليك بحلتي التي كنت ألبسها، تكرمةً لك، فالبسها، واكتب إليَّ بخبرك من منزلٍ إلى آخر». فلبسها امرؤ القيس بعد أن سُرَّ بها وامتلأ قلبه زهوًا. فدبَّ السم في جسده وصار جلده يتقرَّح ويتساقط(17) وقال:

فلو أنَّهَا نَفْسٌ تموتُ سَوِيَّةً

ولكنها نفسٌ تَسَاقَطُ أنفُسَا

احتضر (امرؤ القيس) في الطريق وهُم يمرون على قبر لامرأةٍ رومية، دُفنت وحيدة شاردة. فقال بعد أن قرر أن يدفن إلى جانبها:

أَجَارَتَنَا إنَّا غَريبانِ هَهُنَا

وَكُلُّ غَريبٍ للغريبِ نَسِيبُ

لَمَّا مات (امرؤ القيس) أرسل (قيصر) في طلب ثروته وأدرعه(18)، لكن (السموأل) رفض أن يفرط في أمانةٍ تعهَّد بها، حتى وإن كان الطالب هو (قيصر)، والرسول هو جيشٌ جرَّار يحاصر الحصن!

اختطف المحاصرون ولدًا للسموأل، وخيَّروه بين حياة هذا الولد وأمانة امرئ القيس، فظلَّ على رأيه ولم يعط، وضحَّى بابنه، حتى لا يُضيِّع أمانة رجلٍ ميت!

فلمَّا قتلوا ابنه، قال:

وفيتُ بأذرُعِ الكِنديِّ إنِّي

إذا ما ذم أقوامٌ وفيتُ

وأَوْصى عاديًا يومًا بألّا

تُهَدِّم يا سموأَلُ ما بنيتُ

بنى لي عاديًا حِصنًا منيعًا

وماء كُلّما شئتُ استقيتُ

بعد سنين أصبح (النعمان بن المنذر) عاملًا لـ(كسرى) على (الحيرة)، لكن الخلاف دبَّ بينهما وحمي وطيسه، حتى أصبح (النعمان) يترقب غدرة (كسرى).

بعدما مرَّ على نشوب هذا الخلاف أشهرٌ، بعث (كسرى) إلى (النعمان) يستدعيه. فعلم (النعمان) أن (كسرى) يريد أن يفتك به، فأخذَ أهله وثروته وفيها أربعمئة درع، ثم عهد بكل ذلك إلى (هانئ بن مسعود الشيباني)، وكان سيدًا منيعًا. ثم توجه (النعمان) إلى (كسرى)، فلما بلغ بابه أمر به (كسرى) فقُيدَ ثم نُبذَ إلى مكانٍ قُتل فيه.

ثم إن (كسرى) استعمل مكان النعمان (إياس بن قبيصة الطائي)، وأمره أن يحضرَ إليه ثروة النعمان. فأرسلَ إياس إلى (هانئ) يأمره بإرسال ما استودعه النعمان. فأبى هانئ.

رجلٌ من العرب يعصي أمرًا مباشرًا لـ(كسرى)!

غضب كسرى لذلك غضبًا شديدًا، وعزم على التنكيل بهذا الرجل ومن معه من بني بكر بن وائل، وأرسل إليهم رسولًا يخيرهم واحدةً من ثلاث: إما أن يعطوا ما بأيديهم، وإما أن يتركوا ديارهم، وإما أن يحاربوا!

فلمَّا تفكَّر القوم في خيارات كسرى، غلبتهم أنفتهم، واختاروا أن يقاتلوا.

قبيلة من قبائل العرب تُبادر بحرب فارس!

كأنَّ جبال الجزيرة وسهولها وهضابها وصحاريها المقفرة تتعجب مما آلت إليه الأمور، فأرض العرب على وشك أن تشهد حربًا بين بني بكر بن وائل وجيش الأكاسرة!

أرسل (كسرى) جيشًا كبيرًا، يحوي بين صفوفه رجالًا من العرب المحالفين لكسرى والمعادين لبني بكر، مثل تغلب وإياد.

اعتمدت خطة البكريين على استدراج جيش فارس إلى الفلوات المقفرة، فيكون القيظ حليفًا لهم. فإن الفارس العربي يتحمل من الحرارة والشظف ما لا يتحمله الفارس الفارسي. وبالفعل نجحت هذه الخطة، وحوَّلت المعركة من معركة محسومة إلى معركة بين عدلين.

استمرت الغارات حتى استشعرت إياد أنهم يخذلون العرب بوقوفهم مع كسرى في مواجهة البكريين، فأرسلوا إليهم يقولون: «إن شئتم هربنا الليلة، وإن شئتم أقمنا

وهربنا حين تلاقون القوم». فأجابهم البكريون أن آقيموا بين الجيش ثم انهزموا عنهم إذا التقينا.

فلما التقى الجيشان في الفصل الأخير من المعركة، ولَّت (إياد) من جيش فارس كما وعدت بكرًا، فانهزمت الفرس، وطاردهم البكريون يحصدون رءوسهم، ولا يلتفتون إلى سلبٍ أو غنيمة.

فمن أجل وديعة رجلٍ ميت، كانت هذه هي أول مرة يقف أحدٌ من العرب لفارس.

خامسًا: الطبيعة البدوية النقية

وإنَّي سأكتفي بكلمات رقيقة للأديب الرافعي وصف فيها هذه الخُلَّة فقال:

«سكانُ الفيافي وتربية العراء، ينبسطون مع الشمس ويفيئون مع الظل، ويطيرون في مهب الهواء، بل أولاد السماء، أصحاب الأنوف الحميَّة والقلوب الأبية والطباع السيَّالة والنفوس المنكرة. وقد أصبحت بقاياهم الضاربة في بوادي العربية موضع الإعجاب لأهل البحث من علماء الطبائع، حتى أجمعوا على أنه لا نِدَّ لهذا الجنس في جميع السلائل البشرية، من حيث الصفات التي تتباين فيها أجناس البشر خلقًا وخُلُقًا».

رغمَ هذه الشِّيَم الحسنة، فقد كان للعربِ صفةٌ واحدة قادرة على ابتلاع كل محاسنهم، حيث كانت صدورُ القبائلِ العربيةِ غيرَ صافيةٍ لبعضِها البعض، حتى القريبة في الرحم لبعضها؛ لأنَّ حياة العرب كلها تنافُس.

تنافس بين القبليتين، وتنافس بين بطون كل قبيلة، وتنافس بين بيوت كل بطن، وتنافس بين الإخوة في كل بيت؛ لأنَّ التحزُّب يؤدي إلى التنافس، وهم شعبٌ مُتحزِّب متمايز؛ فهذه قبيلة كذا، وتلك قبيلة كذا، الأمر الذي يدفع الناس إلى المفاضَلة، والمفاضلة تؤدي إلى التنافُس، وهكذا...؛ لذلك فإن قِشرة الرحم الرقيقة، كانت لا تصمد أمام بعض الأحداث التافهة التي تُثير نفوس العرب المتنافسة، فتندلع الحروب الطويلة.

ولولا المعاهدات والأشهُر الحُرُم لأفنى العربُ بعضهُم بعضًا. وإليك بعض أيام العرب المشهورة في السطور الآتية.

(14) كان بعضُ العرب الصعاليك يقتلون أولادهم الذكور أيضًا، هربًا من مسئولية الإنفاق، وخوفًا من الإملاق.

(15) المدامة: الخمر. هواجر جمع هاجرة؛ وهي نصف النهار. المشوف: الواضح. المعلم: عليه علامة.

أسرة: خطوط. مفدم: مصفَّى. يكلم: يُجرح.

(16) كان أبوه يقسو عليه ويطرده من الديار، ويكره فيه إدمانه للهو والترف والإكثار من قول الشعر بلا غرض.

(17) لُقِّب بذي القروح لهذا السبب.

(18) كانت الأدرع عند العرب مستودعًا للقيمة؛ فهي ثروة كالذهب والفضة.

الفصل السادس أيامُ العرب

أيامُ زهير الكلبي:

كان زهير بن جناب الكلبي من رجالِ العرب المعدودين خارج قريش الذين دانت لهم القبائل، وأجمع الناسُ على رياستهم، فلم يكن سيدًا لبني كلبٍ وحسب، بل كان سيدًا لقُضاعةِ كلِّها. ولحدة ذكائه وسطوع حكمته وسداد رأيه لُقِّبَ بالكاهن.

عاشَ (زهيرٌ) عُمُرًا طويلًا ممتلئًا بالمناقب والمواقف والمآثر، وله وحده أكثر من ثلاث معارك عدَّتها العربُ من أيامها المشهورة.

خرجت بعضُ بطون (غطفان) من تهامة يومًا ما ظاعنين بأهليهم وأموالهم، فتعرضت لهم قبيلة (صداء) بقصد سلب الأموال وسبي النساء، فاشتدَّ القتال بين الفريقين حتى ظفرت غطفان ومنع رجالُها أموالهم ونساءهم.

لم تمرّ الحادثةُ مرورًا عاديًّا، فقد عَزَّ الناس في غطفان بهذا النصر، وتفاخروا به، وتسامعت العربُ بالخبر، فلمعت سُمعة غطفان وزادت تجارتها وكثرت أموالها، حتى قال القوم: «والله لنتخذنَّ حَرَمًا مثل مكةَ لا يُقتل صيدُه ولا يُهاجُ عائذُه». وبالفعل بَنَت غطفان حَرَمًا لها.

لَمَّا بلغَ الخبرُ (زهير بن جناب) الكلبي اشتدَّ غضبُه وقال: «والله لا يكون ذلك وأنا حيٌّ، ولا أخلي غطفان تتخذ حَرَمًا أبدًا». وعَزَمَ على الخروج إلى غطفان مُقاتلًا. فجمع قومه وخطبهم وقال: «يا قوم، إن أعظم مأثرةً ندخرها لأنفسنا، أن نمنعَ غطفان من ذلك».

خرجَ (زهيرٌ) في جيشٍ كبير وأغار على غطفان فهزمهم، ثم أخذَ منهم فارسًا وقتله في ذلك الحرم المزعوم ليستحلَّه، ولَمَّا بلغ غايته مَنَّ على غطفان وردَّ إليهم نساءهم، وقال في ذلك:

فلم تَصْبِر لنا غَطَفانُ لمَّا

تَلاقَينا وأُحرِزَتْ النِّساءُ

فلولا الفَضْلُ منا ما رَجَعْتُمْ

إلى عذراءَ شِيمتُهَا الحَيَاءُ

توسَّعَ (زهيرٌ) في سيادته، حتى تملَّكَ على بكرٍ وتغلب ابني وائل، وهما حيَّان عظيمان لهم قدرٌ بين العرب. وبينما كان القوم يرتقبون لحظةً يثور فيها بركانهم فتأكل حممُه هذا الملك

وتابعيه، أصابهم عامُ سنة، فاشتدَّ عليهم ما يطلب (زهير) من الخراج، فقرر رجل منهم اسمه ابن زيابة أن يقتلَ زهيرًا.

خطط (ابن زيابة) وراقبَ ورَصَد، ثم أخذ سيفه، وتسلَّل إلى خيمةٍ لزهير فهو نائمٌ بها. كانت الليلة الظلماء حليفًا لابن زيابة في خطته، فاقترب من (زهير) وطعنه طعنة رشيقة، ثم ولَّى إلى قومه مبشرًا.

في الصباح، دُفنَ زهيرٌ والناسُ يشهدون.

في اليوم التالي، تفاجأ الناس في بكر وتغلب بأن جيشًا يقوده زهير نفسه يباغتهم فاتكًا بهم!

نعم، قُتِلَ زهيرٌ فلم يمت!

خان الظلام (ابن زيابة) وحال بينه وبين غايته، فلم يقتل زهيرًا، بل أصاب صفاقه(19)، ونفذت الضربة، وسلمت الأمعاء والحوايا، وعلم (زهيرٌ) أنَّه قد سَلِم فلم يتحرك وكتم أنينه حتى لا يُجهز عليه ابن زيابة، ثم أكمل خدعته بأن جعل القوم يدفنون ثيابًا فارغة.

جمع (زهير) جيشًا كبيرًا من أهل اليمن، وقاتل به بكرًا وتغلب، فهزمهم، وأسرَ عددًا من شبان فرسانهم وأعلامهم مثل المهلهل وكليب ابني ربيعة.

وكالعادة أصابت الغيرةُ بني القين بن جسر، فقرروا أن يضعوا حدًّا لانتصارات زهير وامتداد ملكه.

كان لزهيرٍ أختٌ متزوجة في بني القين، فلمَّا رأت الغدر في عيون القوم أرسلت رسولًا إلى زهيرٍ يحذره برسالة عجيبة، فلم ترسل معه كتابًا، بل أرسلت معه صرةً فيها تراب وصرَّة فيها شوك! لكن زهيرًا فطن للرسالة وجمع الناس وقال لهم: «إنها تخبركم أنه يأتيكم عدوٌّ كثيرٌ ذو شوكة شديدة».

أراد بنو القين أن يفاجئوا زهيرًا، ففاجأهم باستعداده لهم، فهزمهم وقتلَ رئيسَهم.

لمَّا طالَ العُمُرُ بزهير، وكبرت سنه استخلف ابن أخيه عبد الله بن عليم. وفي يومٍ ما قال زهير في القوم كعادته يأمرهم بالرحيل: «ألا إن الحيَّ ظاعن».

فقال عبد الله: «ألا إنَّ الحيَّ مقيم».

فقال زهير: «من هذا المخالف عليَّ؟».

فقال الناس: «هو ابنُ أخيك عبد الله».

فقال: «أعدى الناس للمرء ابن أخيه».

ثم شربَ الخمرَ صِرفًا(20) حتى مات.

***

أيام البَسُوس:

في مكانٍ ما من أنحاء الجزيرة، كان الناس إذا سمعوا جرو كلبٍ يعوي مضروبًا مستنجدًا، عرفوا أن هناك، في ذاك المكان الذي تخرج منه صيحات الجرو، روضة ماء، وأنها أصبحت مُحرَّمة عليهم بموجب استغاثة هذا الحيوان الصغير. فَهذه هي الطريقة التي اختارها (وائل بن ربيعة) التغلبي المعروف بكُلَيب، ليُعْلِمَ الناسَ أنه قد ضمَّ هذا الماء إلى حِماه.

كان كليبٌ رجلًا عزيزًا عَلَمًا معروفًا، وثالثَ ثلاثة استقرَّ لهم مُلك (ربيعة)، ورضيت بهم العرب.

تفاعلت عِزَّةُ كليبٍ مع سيادته على الناس فأنجبا في قلبه زهوًا شديدًا، فتَغَطرس في كل أفعاله وتصرفاته، فكان يمنع الناسَ المياهَ كما ذكرنا، ولا يَمُرُّ أحدٌ بين بيوته، ولا يشعل أحدٌ نارًا مع ناره، ولا يحتبي أحدٌ في مجلسه، والأعجب من كل هذا أنَّه كان يُجير الوحوشَ في براريها، فيُحرِّم صيدها على الناس بمجرد قوله: «قد أجرت الوحوش في صعيد كذا».

وكانت العرب تضرب به المثل في العِزَّة فتقول: «أعزُّ من كليب».

كان لكليب زوجٌ اسمها (جليلة) أخوها هو (جَسَّاس بن مُرَّة)؛ وهو فارسٌ معروف. وفي يومٍ ما نزل ضيوفٌ في جوار خالة (جساس)، واسمها (البسوس)، فخرجت ناقةُ الضيوف ترعى مع نوق (جساس) التي كانت ترعى مع نوق كليبٍ بإذنه. فلمَّا رأى (كليبٌ) ناقةً منكرةً، سأل عنها (جسَّاسًا) فأعلمه خبرها، فقال له كليب: «لا تُعِد هذه الناقة إلى هذا الحِمى».

فقال جساس: «لا ترعى إبلي إلا وهذه معها».

فقال كليب: «لئن عادت لأضعنّ سهمي في ضرعها».

فقال جساس غاضبًا: «لئن وضعت سهمك في ضرعها لأضعنَّ سِنان رُمحي في رقبتك».

فلمّا عاد كليبٌ إلى امرأته -أخت جساس- قال لها: «أترين رجلًا في العرب يمنع منّي جاره؟». فقالت: «لا أعلمه إلَّا جسّاسًا». فأخبرها بما كان بينهما، فكانت بعدها تُحاول منع (كليب) من تفقُّد الإبل وتُذَكِّره الرحم، ومن جانب آخر تحاول منع (جساس) من أن يُسرِّح إبِلَه مع (كليب).

فخرج (كليبٌ) يومًا إلى الحِمى وأخذ يتصفَّح الإبل بناظريه، باحثًا عن الناقة المنكرة. فلمَّا رآها رماها بسهمٍ في ضرعها، فوَلَّت إلى صاحبها فماتت عنده، فلمَّا رأتها البسوس وعلمت انتهاك جوارها، صاحت: واذُلَّاه! فجاءها (جساسٌ) وأمرها بالسكوت ووعدها بقتل جَمَل أعظم من هذه الناقة، وهو يُضمرُ في نفسه قتل (كليب).

ترصّد (جساسٌ) لـ(كليب)، حتى خرج ذات يوم بعيدًا عن البيوت فتبعه (جساس). فلمَّا كان وراءه قال: «يا كليب، الرمح وراءك».

فقال (كليب) دون أن يلتفت: «إن كنتَ صادقًا فأقبل إليَّ من أمامي».

فلم يستجب له (جساس) وطعنه بالرمح فأرداه من فرسه قتيلًا. ثم انطلق (جساس) مذعورًا مأخوذًا إلى أبيه (مُرَّة بن شَيبان)، فلمَّا رآه قادمًا على فرسه وقد بدتْ رُكبتاه قال: «لقد أتاكم جساس بداهية، ما رأيته بادي الركبتين أبدًا»!

فلمَّا أخبره (جساس) بقتله (كليبًا) قال مُرَّة: «بئس والله ما جئتَ به قومك». فقال له جساس أبياتًا، منها:

فإنِّي قد جنيتُ عليك حربًا

تغصُّ الشيخ بالماء القراح

ثم دعا (مُرَّة) قومه من بني شيبان وبني بكر لنصرته وولده، فلم يستجب له في البداية معظم بني بكرٍ؛ لأنهم أعظموا قتل كليب بناقة! لكنَّهم استجابوا عندما اشتدت الحرب فيما بعد.

لَمَّا بلغ الخبرُ ديارَ (تغلب) فُجِعَ الناس، وأصابهم جزعٌ شديد، فشُقَّت الجيوب، وخُمِشَت الوجوه، وخرجت الأبكار من الديار. ثم طُرِدت (جليلة) من المأتم؛ لأنَّها أخت القاتل! فلمَّا جاءت أباها (مُرَّة) وقال لها: «ما وراءك؟».

قالت: «ثكلُ العدد، وحزنُ الأبد، وقتلُ خليل، وفقد أخٍ عن قليل، وبين هذين، غرس الأحقاد وتفتّت الأكباد».

فقال أبوها: «أوَيكفَّ ذلك كرم الصفح وإغلاء الدِّيات؟».

فقالت جليلة: «أمنية مخدوعٍ ورب الكعبة، أبالدِّيةِ تدعُ لك تغلبُ دَمَ ربِّها؟».

ثم بلغ (جليلةَ) أن أخت (كليب) قالت فيها بعدما رحلت: «رحلة المعتدي وفراق الشامت». فقالت جليلة أبياتًا منها:

يا ابنة الأقوامِ إن شئتِ فلا

تعجَلِي باللومِ حتى تسألي

فإذا ما أنت تبيَّنتِ الذي

يوجب اللومَ فلُومِي واعذلِي

ثم إنَّ (الْمُهَلهِل) عديّ بن ربيعة، أخا كليب، وجد في نفسه حزنًا عظيمًا، فانطلق لسانُه بعددٍ من مآثر المراثي في الأدب العربي، منها:

كُنَّا نغارُ على العواتق أن تُرى

بالأمس خارجة عن الأوطانِ

فخرجن لمَّا ثوى كليبٌ حُسَّرا

مُستيقناتٍ بعده بهوانِ

فلأتركنَّ به قبائلَ تغلبٍ

قتلى بكل قرارة ومكانِ

ثم جزَّ شَعره، وقصَّر ثوبه، وهجر النساء، وترك الغزل، وحرَّم على نفسه القمار والشراب، وجمع قومه للأخذ بالثأر؛ وأرسل رسولًا إلى (مُرَّة) فقال له: «إنَّكم آتيتم عظيمًا بقتلكم كليبًا بناقة، وقطعتم الرحم وانتهكتم الحُرمة؛ وإنَّا نعرض عليكم خلالًا أربعًا لكم فيها مخرج ولنا فيها مقنع، إمَّا أن تُحييَ لنا كليبًا، أو تدفع إلينا قاتله (جساسًا) فنقتله به، أو همَّامًا -وهو أخو جساس- فإنَّه كُفْء، أو تمكِّننا من نفسك فإن فيك وفاءً لدمه».

فقال (مُرَّة): «أمَّا إحيائي كليبًا فلستُ قادرًا عليه، وأمّا دفعي جساسًا إليكم، فإنَّه ركب فرسه فلا أدري أي بلادٍ قصد، وأمّا همَّام فإنه أبو عشرة وعمُّ عشرة وأخو عشرة، كلُّهم

فرسان قومهم، فلن يُسلَموه بجريرة غيره، وأمَّا أنا فما هو إلّا أن تجولَ الخيلَ جولةً فأكون أوَّل قتيل، فما أتعجَّل الموت. ولكن لكم عندي خصلتان، أمّا الأولى، فهؤلاء أبنائي الباقون، فخذوا منهم واحدًا فاقتلوه بصاحبكم. وأمَّا الثانية فإنِّي أدفع إليكم ألف ناقةٍ سود الحدق حُمر الوبر».

فغضب الرسول وعلم الفريقان أن الحرب لا بُدَّ منها، وقال المهلهل:

لا أصلح الله منّا من يصالحكم

ما لاحت الشمس في أعلى مجاريها

اشتعلت الحرب بين (تغلب) و(بكرٍ)، وكانت أيَّامُها طويلة، وقُتل في أوَّل أيامها أعلامٌ من بني بكر مثل (الحارث بن مُرَّة) و(همَّام بن مرَّة)، وكان (همَّام) صديقًا مُقرَّبا للمهلهل، فلمَّا مرَّ على جثته قال: «والله ما قُتل بعد كليب أعزّ عليَّ منك، وتالله لا تجتمع بكرٌ بعدكما على خيرٍ أبدًا».

لَمَّا رأى (مُرَّة) أنَّ تغلب لن تهدأ حتى تقتل جساسًا، أجبره على الخروج إلى أخواله في الشام. فعَلِم المهلهلُ بذلك، فأرسلَ من يعترض طريق جساس ويقتله، فقُتِلَ جساس بعد أن قاتل قتالًا عظيمًا، حتى إن الخبر لمّا بلغ أباه مُرَّة قال: «إنما ليحزنني إن كان لم يقتل منهم أحدًا»، فقيل له: «إنَّ جساسًا قتل منهم خمسة عشر رجلًا وحده». فقال مُرَّة: «ذلك ممَّا يُسكِّن قلبي». ثم أرسل للمهلهل: «إنَّك قد قتلت جساسًا فاكفُف عن الحرب، ودع الإسراف، وأصلح ذات البين». فلم يجبه المهلهل، ورفض كلَّ محاولات الصلح، فاشتعلت الحرب أكثر وأكثر.

في بعض أيَّام الحرب أُسِرَ المهلهلُ نفسُه، فقال له من أَسَرَهُ: «دُلَّني على المهلهل وأنا أخلِّي عنك». فقال المهلهل: «عليك عهد الله بذلك؟». فقال الرجل: «نعم». فقال له المهلهل: «أنا المهلهل، عديُّ بن ربيعة». فتركه الرجل!

وظلَّت الحربُ مشتعلةً حتى بلغت عامها الأربعين، فعندها رغب (المهلهل) في الصُّلح بعد أن ثكلت الأمَّهات، ويُتِّم الأولاد، وأوشك الحيَّانِ على الفناء. فاصطلح الناس، وخرج (المهلهل) قاصدًا اليمن قائلًا: أمَّا أنا فلا أطيق النظر إلى قتلة كليب.

***

أيامُ داحس والغبراء:

في بقعةٍ أخرى من بقاع الجزيرة، في مساكن بني عبس، اختلف (قيس بن زهير) مع (الربيع بن زياد) بشأن درعٍ كانت لقيس لكنَّها أعجبت (الربيع) فأخذها ومنعها (قيسًا). فلمَّا طال الخلاف وبالغ (قيسٌ) في طلب الدرع فبالغ (الربيع) في منعها، انتقل (قيسٌ) بأهله خارج عبس، وأصبح متربِّصًا لـ(الربيع) وأهله وماله، ونجح في أن يسرق من بعير (الربيع) أربعمئة رأس، ثم باعها واشترى بها خَيلًا، فكان منها (داحس) و(الغبراء).

لَمَّا كان (الربيع) ينتظرُ الفرصة ليسترد ماله ويثأر من قيس، نزل (قيسٌ) على بني بدر، حيث كان له فيهم عمومة؛ إذ هم في الأصل من (ذبيان)؛ وذبيان وعبس كلاهما لغطفان. فأجار (حذيفة بن بدر) وأخوه (حمل بن بدر) قيسًا وأحْسَنَا إكرامَه وضيافتَه. ثم إن خيلَ قيسٍ لفتت أنظار بني بدر؛ إذ لم يكن في العرب مثلُها. فبدأ حذيفة يُضمِرُ حسدًا في صدره.

بينما كان (قيسٌ) يتمتَّع بحُسن الجوار من بني بدر، ويتحصَّن بهم من الربيع؛ إذ أتت الرياح بما لا تشتهي السفن. ففي الوقت الذي كان (حذيفة) بالكاد متغلبًا على حسده، أتى إليه رجلٌ وأشار إليه بأن يُحسِّن سلالة خيله بالاستعانة بخيل قيس. كان ذاك الرجل يعلم أنه بهذه النصيحة الإبليسية قد أثار بركانًا خامدًا في صدر حذيفة، حيث أقرَّ له بأن خيل قيسٍ هي الأفضل. وبالفعل ثار حذيفة ولم يهدأ حتى عقد القوم رهانًا عظيمًا على أن يتسابق فرسان لحذيفة مع فرسين لقيس، فاختار قيسٌ داحس والغبراء.

لَمَّا كان حذيفة يعلم عِلمًا يقينًا أن فرسي قيسٍ لا ينهزمان، فإنه جعل رجلًا يترصَّد الخيل في منتصف طريق التسابق، وأخبره أن إذا رأى الغلبة لفرسي قيس فليعترضهما فلا يصلانِ قبل فرسيه. فلمَّا سبق (داحس) سبقًا بيِّنًا نُفِّذت خطةُ حذيفة. وعند خطِّ النهاية وصلت الغبراء أولًا ثم فرسا حذيفة. وبذلك فاز حذيفة على قيس. ثم إن القوم علموا تحايل حذيفة وتبيَّنوا ظلمه، خاصَّةً بعد أن اعترف الرجل الذي اعترض طريق داحس. فانقلب قيسٌ على حذيفة، وكادا يقتتلان لولا أن منعهما الناس. فبدأت بينهما خصومة كبيرة بلغت بقيسٍ، فقتل ابنًا لحذيفة وارتحل بأهله وماله عن بني بدر. فرحل القوم إلَّا مالك بن زهير أخو قيس؛ لأنَّه كان قد تزوج من بني بدرٍ فظنَّ أنَّ هذا النزاع لا يطوله. فلمَّا تفاجأت بنو بدرٍ بقتل ابن حذيفة، خرجوا في طلب قيسٍ فلم يدركوه. ثم عادوا فقتلوا مالكًا!

فلمَّا ضاقت الأرض بقيسٍ، علم أنَّه لا بُدَّ له من أن يتحصَّن بقومه بني عبس، فطلب مُسامحة الربيع فأبَى. ثم بلغ الربيعَ قتلُ مالك، فأرسل من يأتيه بخبر قيس، فجاءه المُخبرُ بأبياتٍ لقيسٍ منها:

أينجو بنو بدرٍ بمقتل مالكِ

ويخذلنا في النائبات ربيعُ

فبكى الربيع وأرسل إلى قيسٍ أن «ائتِ قومك بني عبسٍ فإنا نحميك ونحارب بني بدرٍ». فلمَّا حضر قيسٌ قام إليه الربيع فاعتنقا وبكيا بكاءً شديدًا على مالك. فالتحمت بنو عبسٍ ونسوا ما كان بينهم وتأهَّبوا لقتال بني بدرٍ ومن تبعهم من بني ذبيان. وظلَّ (عنترة بن شدَّاد) يبكيهم بمرثيته التي رثى بها مالكًا.

خرج بنو بدرٍ في جيشٍ من بني فزارة، فقابلتهم عبسٌ فهزمتهم، فصار الناس بينهم بالصلح ففشلوا. ثم أغارت عبسٌ على عدوِّهم فهزموهم مرَّة أخرى وقتلوا مالك بن بدر أخا حذيفة، ولم يكتفوا بذلك بل أغاروا عليهم غارة ثانية قتلوا فيها الحارث بن بدر بن حذيفة وزيد بن حذيفة. فعندها جمع حذيفة بجانب بني بدرٍ وفزارة، بني أسدٍ وبني أشجع وذبيان كلّها، وتوجه لقتال عبس.

سعى السفراء بين الفريقين للتصالح وحقن الدماء، فاصطلح الفريقانِ على أن يقدِّم بنو عبس دِية من قتلوا من بني بدر وفزارة. وبينما كانت عبسٌ تُجهِّز الدِّية؛ إذ تعرَّض بنو بدرٍ لرجالٍ عبسيين فقتلوهم.

فرجعت (عبسٌ) عن الصلح، واستعدَّت للحرب مرة أخرى. فسار إليهم (حذيفة بن بدر) بفزارة وأسد وأشجع وذبيان. فلمَّا رأى (قيسٌ) أن عدد عدوِّهم كبير، أشار إلى قومه أن يتركوا أموالهم واضحة ظاهرة ويأخذ الجيش معسكرًا بعيدًا عنها، ويتركوا فارسًا على داحس يُراقب جيش العدو، فإنهم في أغلبهم أتوا للغنيمة، ولم يأتِ للثأر سوى بنو بدر؛ لذلك فإنهم سينكبُّون على الغنيمة فيتفرَّقوا ويتشتَّتوا، فعندها يأتينا فارسنا بداحس مُسرعًا، فنباغتهم وهم على تلك الحال فلا يكون همُّ أحدهم إلَّا نفسه.

فلمَّا حضر حذيفة بجيشه العظيم، صدق فيهم قول قيس، فنفذت عبسٌ خطتها، فظفرت وقتلت من أعدائها أعلامًا، وهرب حذيفة بن بدر، وحَمَل بن بدر وحصين بن حذيفة بن بدر. فلحق بهم قيسٌ والربيع ورجالٌ معهم، فقتلوهم. فاستثقلت فزارة ما حدث، وأرسلت إلى أحياء العرب تجمعهم لقتال عبس، فقاتل العبسيون قتالًا شديدًا، وظهرت شجاعة عنترة بن شداد ضد جموع العرب. وظلَّت عبسٌ تُحارب، وتنتقل بين الأحياء، ومن جوار قومٍ إلى غيرهم، ومن قتال قومٍ إلى غيرهم، فقاتلوا (شيبان) و(هجر) و(كلب) و(ضبَّة)؛ حتى ملَّ العبسيون الدم، وبدأت العرب تلفظهم.

وبينما كان الحال على ذلك، كان أحد سادة العرب المعروفين (الحارث بن عوف المُرِّي) جالسًا يتسامر مع صديقه (خارجة بن سنان) فقال الحارث: «أتراني أخطب إلى أحدٍ ابنته، فيردّني؟» فقال خارجة: «أوس بن حارثة الطائي». ففي لحظتها قرَّر الحارث الذهاب إلى أوسٍ هذا خاطبًا. فلمَّا نزل (الحارثُ) على (أوس) وأعلمه بمراده، دعا (أوسٌ) ابنته الكبرى فقال لها: «يا بُنية، هذا الحارث بن عوف، سيد سادات العرب وقد جاءني طالبًا خاطبًا، وقد أردتُ أن أزوجكِ منه». فقالت: «لا تفعل؛ فلستُ جميلة، ولست بابنة عمِّه فيرعى رحمي،

وليس بجارك فيستحي منك، ولا آمن أن يرى منِّي ما يكره فيُطلَقني». فقال أبوها: «قومي بارك الله فيكِ». ثم دعا ابنته الوسطى، فعرض عليها فقالت: «لا تفعل» وأحسنت في الكلام. ثم دعا ابنته الصُّغرى فوافقت، فأخبرها برفض أختيها فقالت: «إنِّي والله الجميلة وجهًا، الأمهر يدًا، الرفيعة خُلُقًا، الحَسِيبة أبًا؛ فإن طلَّقني فلا يخلف الله عليه بخير». فزوَّجها (أوسٌ) (الحارثَ).

فلمَّا خلا (الحارث) بها، وهما ما زالا في ضيافة (أوس)، أراد (الحارث) أن يلمسها فقالت: «أعند أبي وإخوتي؟! هذا والله لا يكون». فلمَّا ارتحلا، أراد (الحارث) أن يلمسها خلال الطريق، فقالت: «أكما يُفعل بالأمةِ السبيَّة؟ لا والله حتى تنحر الجزُر، وتُذبح الغنم، وتدعُ العرب، وتعمل ما يُعملُ لمثلي». فلمَّا بلغا بيتهما وفعل لها (الحارث) ما طلبت، ثم أراد أن يلمسها قالت: «أتفرغ لنكاح النساء والعرب تقتل بعضها بعضًا؟! فاخرج فأصلحْ بين الناس ثم ارجع إليَّ فلن يفوتك شيء».

فسعى (الحارث) في الصلح بين (عبسٍ) و(ذبيان)، وكانت (عبسٌ) قد أنهكتها الحروب، فتقابلت رغبتها مع رغبة (الحارث)، فقبلوا الصلح، ودفع الحارث من الدِّيات ثلاثة آلاف بعير. فكان استقرار العرب وحقن دمائهم من تمام مهْر تلك البنت التي لا يعرفها أغلبُنا اليوم.

***

يومُ الفِجار:

أما أشهر أيام العرب، فهو يوم (الفِجَار)، الذي كان بين (كِنانة) وعلى رأسها قريش من ناحية و(قيس عيلان) من ناحية أخرى.

كان للعرب أسواقٌ مشهورة، مثل عكاظ وذي المجاز ومجنة، وكانت هذه الأسواق تُعقد في الأشهر الحُرُم؛ فهي من المواقف المحرمة التي يؤمِّن فيها العرب بعضهم بعضًا، فلا ثأرَ ولا اقتتال.

وكان (النعمان بن المنذر) ملك الحيرة، يبعث كل عام قافلةً تتاجر له في عكاظ، وكان عكاظ بين نخلة والطائف، فَكان النعمان يحتاج دائمًا إلى سيد منيع من سادات العرب يحمي له القافلة من القبائل المعادية وقطاع الطرق والصعاليك حتى تبلغ عكاظًا.

في هذا الموسم تحديدًا، وعندما كان النعمان يستعد لإطلاق قافلته، كان عنده في القصر رجلان معروفان من رجال العرب هما: البرَّاض بن قيس الكِناني، وعروة بن عتبة القَيْسِي.

أمَّا البرَّاض؛ فكانَ رجلًا فاتكًا، خلعه قومُه لكثرةِ شرِّه، وكان يُضربُ المثلَ بفتكِه، فيُقَال: أفتك من البراض! وأمَّا (عروة) فهو سيدٌ من سادات قيس عيلان، كثيرُ التردد على الملوك، حتى لقَّبه الناسُ بـ(الرَّحَّال).

كانَ الرجلان في حضرة النعمان عندما سأل: «من يجيرُ قافلتي حتى تبلغَ عكاظًا؟».

فقال البراض: «أنا أجيرها لك على كنانة».

فقال النعمان: «إنما أريد من يجيرها على كنانة وقيس».

فقال عروة: «أَكَلبٌ خليعٌ(21) يجيرها لك؟! أنا أجيرها لك على أهل الشيح والقيصوم»(22).

فتوجه (البراض) إلى (عروة) وقال غاضبًا: «وتجيرها على كنانة يا عروة؟».

فقال عروة: «وعلى الناس كلِّهم».

فدفع النعمانُ القافلة إلى عروة.

انطلق (عروة) ورجاله على رأس القافلة يقودونها، وتبعهم (البراض) في تربُّص ولؤم، وكان (عروة) يعلم ذلك ولا يخشاه. فلمَّا بلغت القافلة واديًا لقيس عيلان يُقال له: تيمن، أخرجَ (البراضُ) قِداحه يستقسم بها في قتلِ عروة وهو بين ظهراني قومه.

بينما كان (البراض) على هذه الحال؛ إذ مرَّ عليه (عروة) فقال: «ما تصنعُ يا براض؟». فأجاب: «أستقسم في قتلك». فاغتاظ عروة وسبَّه قائلًا: «استك أضيق من ذلك». فوثبَ إليه (البرَّاض) فقتله. فلمَّا رأى القومُ فتكَ البراض بعروة وهنوا وتركوا القافلة وهربوا، فساقها البراض، وسار بها حتى بلغ مكة، ثم أرسل رسولًا إلى سادات قريش في عكاظ يخبرهم بقتله عروة ويحذرهم من طلب قيس عيلان للثأر.

وصل الرسول إلى حرب بن أمية وبلَّغ رسالته، فجمع حربُ عبدَ الله بن جدعان وهشام بن المغيرة(23) وغيرهم من سادات قريش ليشاورهم في الأمر.

على غير المعتاد، انسحبت قريشٌ وكنانة كلها من عكاظ، وقطعوا طريقهم إلى مكة، فتعجب أهل الموسم، وبلغ خبر مقتل عروة قيس عيلان، فخرجوا من عكاظ طالبين قريشًا وكنانة، وعلى أعتاب مكة التقى الفريقان واندلع القتالُ بينهما، فاقتتل الناسُ قتالًا شديدًا منتهكين حُرمة الأشهر الحرم، ثمَّ دخلت قريشٌ الحرم، ولاذت به حتى يتوقف القتال،

فتوقف. فصاح فرسان قيس عيلان: «يا معشر قريش، إنَّا لن نتركَ دم عروة، وميعادنا عكاظ العام القابل».

في العام المقبِل استعدَّت قيس عيلان بجيشها، وجمعت قريشٌ جيشًا عظيمًا من قبائل كنانة، وخرج في الجيش وجهاء الناس؛ فخرج الزبير بن عبد المطلب على بني هاشم، وحرب بن أمية على بني أمية، وعكرمة بن هاشم على بني عبد الدار، وخويلد بن أسد على بني أسد بن عبد العزى، وهشام بن المغيرة على بني مخزوم، والعاص بن وائل(24) على بني سهم، وعمرو بن عبد شمس(25) على بني عامر بن لؤي، وعبد الله بن الجراح على بني فهر، ويقود الجميع حرب بن أمية لمنزلته وسنِّه.

التقى الجيشان مرةً بعد مرة، وعامًا بعد عام، فكانت الغلبة مرةً لقيس ومرةً لكنانة، وطالت الحرب، وأسرف الفريقان في القتل وإراقة الدماء. فلمَّا شقَّ ذلك على الفريقين، دعا الفريقان إلى الصُّلْح.

اصطلح الطرفان على أن يعدَّ كل فريق قتلاه، فأي الفريقين فضل له قتلى على الآخر، أخذ ديتهم. فلمَّا تعادَّ الفريقان القتلى، زاد عددهم في قيس عيلان عن قريش وكنانة بعشرين قتيلًا، فرهن حرب بن أمية ولده أبا سفيان عند قيس عيلان حتى تُدفعَ الديات. ثم تعاهد الطرفان على وضع الحرب ونسيان ما كان بين البراض وعروة.

ولأنَّ الفريقين كانا يعلمانِ أنهما قد تفاجرا بانتهاكهما الأشهر الحرم، فإنَّهما سمَّيا هذه الحرب (حرب الفِجار).

***

أيامُ الأوسِ والخزرج:

لَمَّا غلبت الأوس والخزرج اليهودَ على يثرب، سادَتهم حالةٌ من الاتفاق والاجتماع دَهرًا. ثم وقعَ بينهم أول خلاف أدَّى إلى التحارب في أحدِ أيامهم المشهورة وأولها، وهو يوم سمير.

نزلَ على يثربَ رجلٌ اسمه كعب بن العجلان، فاستضافه مالك بن العجلانِ الخزرجي وحالفه وأبقاه عنده. وفي يومٍ من الأيام، ذهبا معًا إلى السوق، فوجدا رجلًا من غطفان يقف ومعه فرس ويقول في الناس: «ليأخذ هذا الفرس أعز أهل يثرب». وبينما الناس يصيحون، ليأخذه فلان بن فلان، إذا بأخي غطفان يدفع الفرس إلى مالك بن العجلان الخزرجي، فقالَ كعبٌ مكايدًا للحضور: «ألم أقل لكم إن حليفي مالكًا هو أفضلكم

وأعزكم؟». فغضبَ لهذه المقالة رجلٌ من الأوس اسمه سمير، لكنَّه اكتفى بأن أغلظ القول لكعب ثم انصرف.

بعد فترةٍ قابل سمير كعبًا في قباء حاضرًا لأحد الأسواق، فلمَّا خلا السوق، انتهز سمير الفرصةَ وقتلَ كعبًا! فلمَّا بلغَ الخبرُ مالكًا، غضب وجدَّ في طلب سمير، وأرسل إلى الأوس في ذلك، فأنكرت الأوسُ قتل صاحبه، وعرضت عليه الدية، فقبلها مالك. لكنَّ مالكًا كان يريد أن يأخذ دية النسيب لا الحليف، وكانت دية الحليف نصف دية النسيب. فلمَّا أبت الأوس، وزاد الشقاق بين الطرفين، اشتعلت بينهما حربٌ والتقيا فيها مرتين، وكان الظفر في الأخيرةِ للأوس. فلمَّا افترق الجيشان، أرسلت الأوس إلى مالك يدعونه إلى الاحتكام إلى المنذر بن حرام النجاري(26)، فأجابهم مالك.

فحَكَمَ بينهم المنذر بأن يدوا كعبًا ديةً كاملة، فامتثلت الأوس للحكم، وافترق الطرفان وقد شبَّت البغضاء بينهما وتمكنت العداوة من نفوسهم.

تتالت بعد ذلك الحروب بين الأوس والخزرج، وكلها لأسبابٍ بسيطة، كأنَّ الطرفين يستغلان أقل الفرص للتحارب. فوقع يوم كعب بن عمرو المازني، ثم يوم السرارة، ثم يوم الحصين بن الأسلت، إلى أن وقعت حرب حاطب، وبينها وبين حرب سمير نحو مئة سنة كلها يتخللها الحروب!

كان حاطب بن قيس الأوسي رجلًا شريفًا عَلَمًا، فنزل عليه ضيفٌ من بني ثعلبة فمكث عنده. ثم إنَّ هذا الضيف ذهب إلى سوقِ بني قينقاع، فرآه رجلٌ من الخزرج، فأغرى به رجلًا يهوديًّا وقال له: «لك ردائي هذا إن كَسَعتَ»(27). ذلك الرجل الثعلبي، فذهب اليهودي فَكَسَعَ الضيف الثعلبي كسعةً سمعها كلُّ من بالسوق، فنادى الثعلبي مستنجدًا: «يالحاطب! كُسِعَ ضيفُكَ وفُضِح». فجاءه حاطبٌ مسرعًا فسأله: «من كسعك؟».
فأشار إلى الرجل اليهودي. فقام إليه حاطب فضربه بالسيف فَفَلَقَ هامتَه.

فلمَّا علم الرجل الخزرجي ما حدث، ذَهَبَ إلى ديار حاطب وقد أعماه الغضب، فلمَّا لم يدرك حاطبًا، قَتَلَ أول رجلٍ قابله!

ثم ثارت حربٌ عظيمةٌ بين الأوس والخزرج، وكانت العرب قد تسامعت بما يدور، فسارَ عيينةُ بن حصن وخيار بن مالك الفزاريان، وقدما إلى يثربَ وأرادا أن يصلحا بين القوم، لكنهما أيسا من الإصلاح لما رأيا شدة البغضاء والعداوة بين الأوس والخزرج، واكتفيا بالمحاولة. ووقعت عدة معارك كلُّها تَبَعًا لحرب حاطب.

فكان من توابع حرب حاطب، يومُ البقيع، وقد انتهت الحرب فيه، بأن يحسب الطرفان قتلاهم، فمن كان له الفضل في القتلى، أخذَ الدية. فلما تعادُّوا القتلى، زاد عددهم في

الأوس عن الخزرج بثلاثة نفر. فدفعت الخزرج بثلاثة غلمان إلى الأوس رهنًا حتى تُدفع الديات، لكن الأوس غدرت وقتلت الغلمان!

على أثر قتل الغلمان الثلاثة، شبَّت حرب الفجار الأولى بين الأوس والخزرج(28)، ثم تبعها يوم معبس ومضرَّس، ثم يوم الفجار الثاني، وكان لهذا اليوم الأخير شأنٌ عظيم؛ لأنَّه أولُ أمرِ اليهود في حروب الأوس والخزرج.

كان اليهود في كل تلك الأيام والمشاهد يكتفون بسماع الأخبار فقط، وليس لهم في حرب القوم ناقة ولا جمل، لكن يوم الفجار الثاني كان بداية اشتراكهم في أيام يثرب. حيثُ طلبت الأوس من قريظة والنضير أن يحالفهوم على الخزرج، فلمَّا علمت الخزرج ذلك أرسلت إلى اليهود تتوعدهم وتؤذنهم بالحرب، فخاف اليهود ورفضوا حلفَ الأوس، وأرسلوا إلى الخزرج بذلك. ثم إن الخزرج طلبت منهم رهنًا يضمنُ لهم عدم موالاتهم للأوس، وكان الرهن أربعين غلامًا من قريظة والنضير.

ثم إنَّ رجلًا من الخزرج شربَ يومًا، واختمر عقله، فتغنَّى بشعرٍ أساء فيه إلى قريظة والنضير. فلمَّا بلغ قولُه اليهود، نزعوا يدهم من الخزرج، وقبلوا حلفَ الأوس. فلما علمت الخزرج قتلت كُلَّ من كان عندها من الغلمان؛ لذلك سُمِّي هذا اليوم (يوم الفجار الثاني) على غرار اليوم الأول. ثم اجتمعت قريظة والنضير والأوس لحرب الخزرج، فاقتتلوا قتالًا شديدًا كالعادة.

وكان دخول اليهود في سلسلة الحروب التي لا تنتهي تلك، إيذانًا بالوصول إلى أشهر أيام الأوس والخزرج؛ (يوم بُعَاث).

حيثُ جدَّدَت قريظةُ والنضيرُ عهدهما مع الأوس، واستحكم الأمر بينهم وجدُّوا في الاستعداد لحرب الخزرج. وفي المقابل استعْدَت الخزرجُ حلفاءها من أشجع وجُهينة. ومكث الطرفان يستعدان للحرب أربعين يومًا. ثم التقوا بمكانٍ يُسمَّى (بُعاث). فاقتتلوا قتالًا أعظم من كل أيامهم السابقة. حتى إن سيد الأوس (حضير الكتائب بن سماك)(29) لمَّا رأى قومَه ينهزمون، بَرَكَ في الأرض، وطعنَ قدمه بسِنانِ رمحه، وصاح فيهم: والله لا أعود حتى أُقتَل، فإن شئتم يا معشرَ الأوس أن تُسلِموني فافعلوا، فاجتمع قومه حوله يقاتلون عنه ويصمدون للخزرج. ثم إنَّ سهمًا طائشًا أصاب (عمرو بن النعمان) رئيس الخزرج فقتَلَه. فانهزمت الخزرج ووضعت فيهم الأوس السيوفَ، حتى صاح صائح: «يا معشرَ الأوس، أحسِنوا ولا تُهلكوا إخوانكم، فجوارهم خيرٌ من جوارِ الثعالب». فانتهى القوم عنهم وتركوهم ولم يسلبوا منهم شيئًا، بل سلبت قريظة والنضير.

وكان من آثار ذلك اليوم أن احترقت دور الخزرج ونخيلهم، ومات (حضيرٌ) متأثرًا بجرحه.

***

هذه هي جزيرة العرب. أرضٌ يعزُّ فيها الماء وتغزرُ فيها الدماء. فقلَّما تنظر إلى بقعةٍ منها فتراها ساكنةً مطمئنة؛ فأينما تقع عيناك لا تقع إلَّا على حربٍ. ووسط كلِّ هذه الصراعات ظلَّت مكة بمنأى عن هذا السرطان الذي أصاب الجزيرة كلها. فكانت حرمًا آمنًا يُتَخطَّفُ الناسُ من حوله.

(19) طبقات الجلد.

(20) خالصًا غير ممزوج، وهي طريقة انتحار غريبة عند سادات العرب، انتحر بها أيضًا عمرو بن كلثوم التغلبي.

(21) خلعه قومُه ونبذوه.

(22) نباتان عُشبيان برِّيان، وهو يُكنِّي بذلك عن أهل الأرض كلهم.

(23) والد أبي جهل.

(24) والد عمرو بن العاص رضي الله عنه.

(25) والد سهيل بن عمرو رضي الله عنه.

(26) جد حسان بن ثابت رضي الله عنه.

(27) ضربتَ دُبرَه.

(28) وليست هذه بحرب الفجار المشهورة بين كنانة وقيس عيلان. وسميت هذه بحرب الفجار أيضًا؛ لأن الغدر وقتل الغلمان كان من الفجور عند العرب.

(29) والد أسيد بن حضير رضي الله عنه.

الفصل السابع نظرةٌ من أعلى

قسَّم العربُ جزيرتهم(30) إلى خمسة أقاليم رئيسة: تِهامة والحجاز ونجد واليمن والعروض.

أمَّا تِهامةُ فهي الأراضي التي تلي البحر الأحمر من ساحله الشرقي، وتمتد عرضًا إلى سلسلة جبلية تُسمَّى السراة غربًا. وقد أطلقَ العربُ على هذه المنطقة تهامة بسبب غلبة التهم على مناخها، والتهم هو شدة الحر وركود الرياح.

وأما الحجاز فهي جبال السراة ووديانها، وتمتد من اليمن جنوبًا إلى الشام شمالًا، وسُمِّيت الحجاز؛ لأنها حاجز بين تهامة ونجد.

وأما نجد فهي أوسع أقاليم الجزيرة رقعةً، حيث تبدأ من الحجاز غربًا وتنتهي إلى العروض شرقًا، ومن اليمن جنوبًا إلى العراق شمالًا، وسُمِّيَ هذا الإقليم نجدًا لارتفاع أرضه؛ فالعرب تقول للشيء المشرف المرتفع نجد.

وأما العروض، فذلك الحيِّز الفاصل بين نجد غربًا والبحر شرقًا، وفيه أرضُ اليمامة والبحرين، وسُمِّيَ عروضًا لاعتراضه الاتصال بين أراضي اليمن ونجد والعراق.

وأما اليمن فهو ما كان جنوب نجد حتى ساحل بحر الهند.

وهذه الأقاليم الخمسة تُشكِّل معًا أرض العرب التي تحدها من الشمال الشرقي مملكة فارس، ومن الشمال الغربي مملكة الروم.

***

باستثناء اليمن والحيرة والشام، كانت الأوضاع السياسية في الجزيرة متردِّية، وأقلّ من أن يُعرَف لها نظامٌ يُذكَر. فالعرب قبائل متطاحِنة؛ وكل قبيلة تسوِّد عليها رجلًا عَلَمًا معروفًا بالكرم والحلم والشجاعة وحُسنِ النسب. وسواء سُمِّي هذا الرجل مَلِكًا أو لم يُسمَّ، فهو ليس مَلِكًا بالشكل المعهود المعروف عن المَلِك.

اليمن:

في الجنوب، هناك اليمن الخضراء مهْد الحضارة ومنبت العرب، وأحد أقدم الأراضي المأهولة في تاريخ الأرض. إن تاريخ اليمن يحوي ممالك وملوك وملكات، لكن المُلْك في

اليمن لم يكن هو النظام السياسي الدائم، بل كان الملك في اليمن مجرد ومضات تاريخية، تومض ثم تخفت أو تختفي، فليس ثمة ملكٌ مستقرٌ متوارثٌ طويل الأمد كفارس والروم.

مرَّ على اليمنِ وقتٌ، شهد على عظمتها ومضاهاتها للممالك الخالدة، ويمكن جمع واختصار ما نقله (لوبون)(31) عن (هيرودوت) وغيره من المؤرخين في تلك الكلمات الرقيقة:

«إنَّ اليمن كانت أعزَّ بقاع الأرض. وإنَّ مأرب كانت تحوي قصورًا نضرة ذات أبوابٍ عسجدية وآنيةٍ من ذهبٍ وفضةٍ وسُرر من المعادن النفيسة. إنها في العام كانت مليئة بالزخرفة والحجارة النفيسة، وبيوتها تشبه بيوت مصر».

كان النظام السياسي الأدوم في اليمن يُشبه باقي أنحاء الجزيرة، الناس في قبائل متمايزة ولكل قبيلة رئيسها، لكن المختلف هنا عن باقي الجزيرة، أنَّه في أحايين كثيرة كان هذا الرئيس يتوسع ويُغير على القبائل المجاورة ويضمها إلى سلطانه، فيصبح أعظم من رؤساء القبائل، ومع ذلك أقل من ملوك الممالك المعروفة.

وكان الرجل من رؤساء اليمن إذا استقام له أمرُ الشحر وحضرموت سُمِّيَ تُبَّعًا.

تعرضت اليمن في تاريخها إلى الوقوع تحت حكم ممالك أخرى كفارس والحبشة، كما ستقرأ في هذا الكتاب.

الحيرة:

أما الحيرة في العراق، فقد كان لها وضعًا سياسيًّا واجتماعيًّا مميزًا، فهي أرضٌ سكنها العرب وحكمها الفرس!

تزامنت هجرة العرب بعد حادثة السد مع ضعف سلطان الفرس وانفراط عِقدهم وتحولهم إلى مجموعة من الممالك الصغيرة المتنافسة فيما يعرف تاريخيًّا بفترة (ملوك الطوائف). فَعلى غفلة من ملوك الطوائف نزلت بعض قبائل العرب ريف العراق. ثم إنَّ (كسرى أردشير) أعاد إلى فارس وحدتها، وبَسَطَ سلطانه على كل مخالفيه وأراضيهم، واستعاد أراضي العراق التي سكنها العرب، فضمَّهم إلى رعيته. لكن العرب لا يقبلون حكمَ الأغراب وإن كان كسرى، الأمر الذي دفع (أردشير) ومن خَلَفه إلى أن يملِّك على العرب رجلًا منهم يكون نسيبًا منيعًا.

ومع ذلك كانت الحيرة تُنافس عواصم الأكاسرة والقياصرة في الترف والعظمة، يقول (لوبون): «وقد كانت الحيرة مؤثثة بأثمن الأثاث، وكانت حدائقها مكسوة بأعز الأزهار، وكانت قواربها الأنيقة الساطعة الأنوار تشقُّ الفرات ليلًا حاملةً أغنى الأمراء وأمهر الموسيقيين..». هكذا يكون كسرى قد ساس العرب، وراعى أنفتهم، وأمِنَهم.

كان أول ملوك الحيرة من العرب (جذيمة الوضاح)، ومن أشهرهم: (المنذر بن ماء السماء) وابنه (المنذر) وحفيده (النعمان).

ومع ذلك كان العرب أحيانًا يتمرَّدون على هؤلاء الملوك العرب، بل أحيانًا يقتلونهم! وقد ذكرنا في سطورٍ سابقة ما حدثَ بين عمرو بن كلثوم وعمرو بن هند ملك الحيرة.

الشام:

أما حال الشام ونظامه السياسي، فهو مُطابِق للحيرة في العراق، فقد سكن العرب أراضي الشام لخصوبتها، وضمهم (قيصر) إلى رعيته، واستعمل عليهم ملوكًا منهم، وكان من أشهر ملوك الشام العرب: الضجاعمة والغساسنة.

***

أما الجاران العملاقان للعرب، فإنَّ لهما ملكٌ وحكومةٌ ودولة، وإليك كلمات عن تاريخهما.

يُقالُ: إنَّ الفرس هم بنو فارس بن تيرش بن ماسور بن سام بن نوح.

بداية تاريخ الفرس كإمبراطورية عظيمة مقترن باسم (كورش)؛ وهو رجلٌ شجاع أتى بقومه من البدو في آسيا، وحارب بهم مملكةً عظيمةً تقع في سلسلة زاكروس الجبلية بين إيران والعراق تُسمَّى (مملكة ميديا).

غلب (كورش) الميديين في فترةٍ من فترات نحولِ دولتهم وضيقِ حدودهم، وعلى أنقاض مملكتهم العتيقة أقامَ مملكةً جديدة مذهلة، ووتَّد لها حكومة ونظامًا وجيشًا مُزبدًا غزا به الأقاليم الشرقية والغربية، حتى وصلت إمبراطورية فارس الأولى هذه(32) شمال الهند شرقًا ومصر غربًا.

أدَّى تلامس الحدود الغربية لمملكة فارس مع توسعات مقدونيا القديمة شرقًا إلى اندلاع سلسلة من الحروبِ بين الطرفين، وفي فترةٍ من فترات التغلب اليوناني، توسع فيليب المقدوني في التوغل داخل فارس. فلمَّا قُتِل وورثَ مُلكَه ولدُه الشاب الفارس الإسكندر المقدوني، قام الابن بخطةِ أبيه على وجهها، وبالغ في تنفيذها وألحق بفارس هزائم نكراء أدَّتْ إلى تشتيت جمعهم وتفتت تاجهم، فتحولت الإمبراطورية التي كانت أكبر ممالك الأرض إلى عدد من الممالك الصغيرة التي تشبه الإقطاعيات، والتي تُسمَّى تاريخيًّا فترة ملوك الطوائف.

بعد ذلك بقرابة السبعمئة عام، استطاع (أردشير بن بابك بن ساسان) أن يُوحِّد ممالك فارس المتطاحنة تحت راية واحدة، وأن يُؤسِّس بهم إمبراطورية جديدة، ويبدأ بهم عصر الأكاسرة أو عصر الإمبراطوريَّة الساسانية(33).

في غرب إمبراطورية فارس، فبطريقة غير مباشرة وعلى أنقاض الإمبراطورية المقدونية وأحفاد هِرَقل قامت الإمبراطورية الرومانية الأوروبية، وكانت هي المسيطرة على القارة كلها ومركزها الثقافي والحضاري والعسكري حتى انفتقت إلى إمبراطورية شرقية وأخرى غربية.

أما الإمبراطورية الغربية فظلَّت قابعة بين جدران أوروبا حتى انهارت على يد القبائل الجيرمانية وهجماتهم المتلاحقة. وأما الإمبراطوريَّة الشرقية فقد كان لها النَّفَس الأطول، وامتدت لخارج أوروبا، واحتضنت سواحل البحر الأبيض كلها تقريبًا، حتى صار البحر بحيرةً فيها وورث اسمها فأصبح بحر الروم!

أُطلق على هذه الإمبراطورية (الإمبراطورية الرومانية أو البيزنطية)(34). وأطلق على الشعب الروم، وعلى الملك قيصر.

وجديرٌ بالذكر أنَّ الإمبراطورية الساسانية ونظيرتها البيزنطية كانتا في تحارُبٍ دائم، وقد كان لذلك أثرٌ كبيرٌ وفارقٌ في تاريخ هذا الإقليم من الأرض عندما بدأ العربُ غزوَهم.

***

إنَّ بلاد الرافدين والشام منطقةٌ خصبة لقيام الممالك والإمبراطوريات المعمَّرة، وهذه الممالك كلها تريد التوسع شرقًا وغربًا؛ لذلك ففي التاريخ البعيد، كانت الحدود الشمالية لجزيرة العرب شاهدًا دائمًا على أشهر وأعظم ممالك التاريخ، مثل الآشورية والبابلية والكلدانية والفارسية والمقدونية والرومية والمصرية.

وهنا علامتا استفهام:

- أولًا: هل طمعت تلك الإمبراطوريات في ضمِّ جزيرة العرب إلى سلطانها أم لا؟
- ثانيًا: كيف كان التأثر الناتج عن احتكاك أهل الجزيرة بأهل تلك الإمبراطوريات؟

أما عن غزو الإمبراطوريات العملاقة لجزيرة العرب فإنَّ التاريخ بطولِهِ يؤكد لنا أن الجزيرة لم تكن مطمعًا لجل تلك الممالك، فهي كما تعلم -باستثناء اليمن- لا ماء فيها ولا زرع ولا موارد.

ومع ذلك ثمة حالتان خالفتا تلك القاعدة(35).

- أما الحالة الأولى: فقد ذكرت بعض المصادر التاريخية أن الإسكندر كان قد انتوى غزو أرض العرب، لكنَّ الموت حال بينه وبين إمضاء نِيَّتِه.
- وأما الحالة الثانية: فإن (بختنصر) صاحب الإمبراطورية البابلية العظيمة خَرَقَ عُرفَ التاريخ، ونجَحَ في ضمِّ معظم جزيرة العرب إلى سلطانه وتاجه(36)، فقد بلغت دولته في أقصى اتساعٍ لها سيناء وأرض الحجاز.

عدا تلك المرتين، لم يذكر لنا التاريخ القديم احتلال الجزيرة من أحد جيرانها الشماليين(37).

صحيحٌ أنَّ الأغارقة دوَّنوا في أوراقهم انبهارهم بغنى العرب قبل الميلاد، لكن هذا الانبهار لم يُترجم إلى احتلال، أو لعل هذا الانبهار كان باليمن والجزء الجنوبي من أرض العرب -وبينها وبين الغازي مفاوز مهلكة- وهي المنطقة التي سماها الأغارقة أنفسهم (أرض العرب السعيدة)، أما باقي بقاع الجزيرة فحتى وإن اغتنى أهلها من التجارة والماشية فإنها بيئةٌ فقيرةٌ مجدبة.

ونختم الإجابة عن هذا الاستفهام الأول بتلك الرسالة التي أرسلها عربُ الحِجر إلى الأمير (ديميتريوس)(38) عندما أعدَّ الجيوش لغزوهم.

«لماذا تحاربنا أيها الملك ديميتريوس ونحن سكان الصحارى التي لا تُسدُّ فيها خلَّة؟ ترانا نقطن في هذه الديار القاحلة فرارًا من العبودية. اقبل هديتنا وارجع إلى حيث كنت، سنكون من أوفى الأصدقاء لك...».

أما عن أثر احتكاك العرب بتلك الممالك، فيمكننا القول بأن هذا الاحتكاك ولَّدَ آثارًا كثيرة وعميقة، منها طبعًا استخدام العرب مسكوكات تلك الممالك، ومنها معايشة بعض العرب لحياةٍ تضاهي حياة ملوك وأمراء تلك الممالك، كالمناذرة والغساسنة. ومنها معرفة العرب ببعض الأساليب والأدوات الحربية في تلك الممالك؛ فقد كانت تلك الممالك تتحارب حروبًا طويلة، وكان العرب يشتركون فيها أحيانًا، فيحالفون بعض الممالك ويعادون غيرهم، والشاهد على ذلك من التاريخ أنَّ (قمبيز بن كورش) لَمَّا أراد أن يسير إلى مصرَ غازيًا عقد صُلحًا مع عرب الحجاز.

ومن آثار الاحتكاك ما هو أهمُّ؛ فقد تأثرت قبائلُ العربِ بفكرتي الدولة والحضارة بمفهومهما العام، وهذا الأثر وإن لم يكن سريعًا في الظهور، فإنَّه حقيقة، لا ينكرها إلَّا ضعيف الفهم(39)؛ لأن التاريخ يبيِّن لنا أن الحضارة التي أقامها العرب فيما بعد، كانت سريعة جدًّا بالشكل الذي يدل على أنَّ هؤلاء القوم كانوا يملكون مادةَ الحضارة منذ زمن. وهذه المادة جزءٌ منها في أخلاقياتهم، وجزءٌ منها نتج عن احتكاكهم بتلك الممالك.

صحيحٌ أن المظهر العام للجزيرة لا يُوحِي بذلك، لكن هذا لا ينفي طمع العرب في بناء حضارة خاصة بهم. فقط كانوا يفتقدون اجتماع الكلمة والقيادة الرشيدة.

ونحن نأخذ طريقًا وسطًا بين (رينان) الذي قال: «لا مكان لبلاد العرب في تاريخ العالم السياسي والثقافي والديني قبل ذلك الانقلاب المفاجئ الخارق للعادة الذي صارت به العرب أمة فاتحة مبدعة». و(لوبون) الذي رد على (رينان) قائلًا: «وعندنا أن هذا الرأي فاسد أول وهلة، ولو لم نعلم شيئًا عن ماضي العرب، فإن أمكن ظهور حضارة أمة ولغتها على مسرح التاريخ، لا يكون هذا إلا نتيجة نضج بطيء، فلا يتم تطور الأشخاص والأمم والنظم والمعتقدات إلا بالتدريج».

وطريقنا الوسطي نرى فيه أن كلام (رينان) صحيحٌ نسبيًّا على المستوى العالمي، وهذا لا ينفي وجود تأثر ونضج داخلي وبطيء في عقلية العرب كما قال (لوبون).

قال حُسام عيتاني في فصله الأول من كتابه المهم (الفتوحات العربية في روايات المغلوبين):

«لم يظهر العرب فجأة على مسرح الأحداث. كانت تربطهم علاقات وثيقة بالمراكز الحضارية المحيطة بالجزيرة العربية من الشام ومصر وفارس وبيزنطة في مجالات التجارة، وما يرافقها في العادات والمعارف والثقافة عمومًا. وعلى الرغم من الطابع المفاجئ للفتوحات العربية الإسلامية على المستوى التاريخي؛ فإن عددًا كبيرًا من الأحلاف والحروب ومستويات متنوعة من العلاقات نشأت بين العرب وبين الشعوب والدول القريبة منهم، سبق الفتوحات بقرون من الزمن».

(30) من الناحية الجغرافية، جزيرة العرب هي شبه جزيرة، لكن العرب اعتبروها جزيرة؛ لأنهم وجدوا أرضهم وقد أحاطتها البحار ومن حولها وجوارها ووراءها أنهار عظيمة، كدجلة والفرات والنيل. ورغم أن العرب قد سكنت بعض أراضي العراق والشام وسيناء؛ فإن هذه الأراضي ليست محسوبة من أراضي العرب الأصلية، وتدخل في حدود الجزيرة أحيانًا من باب التساهل.

(31) جوستاف لوبون (ت:1931 م)، هو مؤرخ وطبيب نفسي فرنسي، اهتم بتاريخ المنطقة العربية، حتى أنتج كتاب (حضارة العرب) عام 1884. وله شهرة كبيرة في هذا الباب بسبب إنصافه لتاريخ هذه المنطقة ومخالفته للكثير من أقرانه الغربيين.

(32) تُسمَّى الإمبراطورية الأولى لفارس، الإمبراطورية الأخمينية.

(33) نسبةً لجده ساسان، الذي كان أحد كبار كهنة الزرادشتية.

(34) هذه التسمية حديثة جدًّا بالنسبة للتاريخ، واستُخدمت منذ 500 عام تقريبًا، وسبب ذلك هو التمييز التاريخي للفترة التي تلت انتقال عاصمة الإمبراطورية إلى بيزنطة وتحويلها إلى القسطنطينية وإعلان المسيحية دينًا للدولة.

(35) بصفةٍ عامة، كانت فتوحات الفاتحين لأراضي العرب كالسيول، تأتي جارفة عارمة تكتسح كل شيء تجده أمامها، ثم لا تلبث أن تزول وتختفي آثارها بعد مدة قصيرة.

(36) عند أغلب المُحققين، كان غزو (بختنصر) للعرب في عهد (معدّ بن عدنان). ويزعم بعضُ أهل الأخبار أنَّ حملةَ (بختنصر) على أرض العرب كانت بدافعٍ ديني محض، وأنَّه كُلِّفَ بذلك عن طريق النبي (إرميا) والنبي (برخيا)، اللذين أخبراه بأنَّ الله يأمره أن يغزوَ أرضَ العرب.

(37) يذكر لويس سيديو في كتابه (خلاصة تاريخ العرب) أن الرومانيين حاولوا محاولات كثيرة لفتح بلاد اليمن قديمًا، حيث سارَ إليها سنة 24 قبل الميلاد (أليوس جالوس) لكنَّه تاه في القفار وعاد دون جدوى، ثم سار إليها (قسيوس) سنة 170 بعد الميلاد ولم ينجح، ثم غزا (مكرين) أرضَ العرب سنة 170 بعد الميلاد، ونَجَحَ في ضمِّ بعض أراضي الحجاز إلى دولته لفترة.

(38) بعد موت (الإسكندر)، انقسمت إمبراطوريته بين قادته، وكان من بينهم (أنتيغون) وهو الذي بعث جيشًا إلى الحِجر بقيادة ولده (ديميتريوس).

(39) بعضُ الباحثين الغربيين إذا تناولوا تاريخ العرب ألحدوا عن الموضوعية إلحادًا شديدًا.

الفصل الثامن أصحاب الأخدود

تاريخ بني آدمَ يشهدُ بلا تردُّد، ويصدع بلا خوف، بأن الدينَ والتعبُّدَ واللجوءَ إلى قوةٍ قاهرة، تنفع وتضر، وترفعُ وتحط، وتحاسب وتجزي، أمرٌ من لوازم الحياة. فليس ثمة أمةٌ في التاريخ، ليس لها معتقداتها الدينية الخاصة.

والحقُّ أنَّ الإلحادَ بدعةٌ من المنظور التاريخي.

أمَّا بخصوص العرب وجيرانهم، فاختصارًا يمكن أن نحدد الديانة الغالبة(40) لكل أمةٍ فنقول:

مَلَكَ قسطنطينُ الرومَ وهم (صابئة) يعبدون الكواكب، ويمثلون لبعضها تماثيل عملاقة، لكنَّه تنصَّرَ وجعل النصرانيةَ دينَ الإمبراطورية الرسمي(41).

أمَّا فارس، ففي كل المراحل التاريخية لأراضيها سواء كانت أخمينية أو بارثية أو ساسانية، كان الناسُ يدينون بالمجوسيَّة وخاصة الزرادشتية(42) وهي فلسفة تقوم على فكرة الثنائية الكونية، والصراع بين قوى خير وقوى شر، وقومها يقدسون النار.

أما العربُ في جزيرتهم، فالأصل أنهم كانوا يدينون بدين إبراهيم استجابةً لدعوة أبيهم إسماعيل، لكنَّهم انحرفوا شيئًا فشيئًا حتى شاقُّوا ملة إبراهيم فصارت في شقٍّ وهم في شق.

بدأ الأمر عندما كان العرب لا يطيقون الابتعاد عن الكعبة والاستغناء عن بركتها، فصاروا يأخذون منها ذاتها أو من جوارها أحجارًا تبقى معهم في أسفارهم وتقلُّبَاتهم، ثم قدَّسوا هذه الحجارة التي معهم، وجعلوها بمنزلةِ البيت العتيق، فكان أحدهم أحيانًا يطوف بهذا الحجر كما يطوف الحجيج بالكعبة! من هذا الوازع وهذا التصرف تسرَّبَ إلى قلوب العرب تبجيلُ الحجارة. ثمَّ أجهز (عمرو بن لحي) على ما بقي في قلوب العرب من دين إبراهيم بفعلته التي ذكرناها في الفصل الأول.

وبمرور السنين اكتظَّت الجزيرة بأصنامها!

(ودٌّ) في بني عذرة، و(سواعٌ) في بني هذيل، و(يغوث) في بني مذحج، و(يعوق) في بني همدان، و(نسرٌ) في حمير(43)، و(مناة) على ساحل البحر، و(اللات) في الطائف، و(العزى) بوادي نخلة الشامية، و(ذو الخلصة) بين مكة ويثرب. وحتى الكعبة أحاطتها الأصنام، وكان بينهم تمثالٌ عظيمٌ من عقيق أحمر على صورة إنسان يده اليمنى من ذهب يقولون له: (هُبَل).

إنَّ تعظيم الإنسان للحجارة وعبادته للأصنام، يبدأ دائمًا تدريجيًّا، ويتسرَّب خلال أجيال، حتى يتمكن من قلوب الناس.

قد ذكرنا التدرج الذي بدأ بالتبرُّك بأحجار الكعبة، ونشير هنا إلى تدرج آخر؛ تلك الأصنام الخمسة التي أحيا ذكرها العرب، وهي تعود تاريخيًّا إلى عصرِ نوح.

مات في تلك القرية التي بُعِثَ فيها نوح، أناسٌ صالحون عابدون من أشراف القوم، وهم (ود) و(سواع) و(يغوث) و(يعوق) و(نسر). فاستوحش الناس وأرادوا تخليد ذكراهم، فمثلوا لهم تماثيل يمرون عليها عسى أن تذكرهم ببلاء فقدانهم في التنسك والعبادة. أما الجيل الأول الذي بنا بنفسه تلك التماثيل فمات ولم تضره التماثيل في شيء، وأما الجيل الثاني فبالغ في تقدير التماثيل وتبرَّك بها، وأما الجيل الثالث، عَبَدَها!

أضف إلى ذلك ما قاله (المباركفوري) في رحيقه:

«أمَّا فكرة الشِّرك وعبادة الأصنام فقد نشأت فيهم على أساس أنهم لما رأوا الملائكة والرسل والنبيين وعباد الله الصالحين من الأولياء والأتقياء والقائمين بأعمال الخير، لَمّا رأوهم أنهم أقرب خلق الله إليه، وأرفعهم درجة وأعظمهم منزلة عنده، وأنهم قد ظهرت على أيديهم بعض الخوارق والكرامات، ظنوا أن الله أعطاهم شيئًا من القدرة والتصرف في بعض الأمور التي تختص بالله سبحانه وتعالى، وأنهم لأجل تصرفهم هذا ولأجل جاههم ومنزلتهم عند الله يستحقون أن يكونوا وسطاء بين الله وبين عامة عباده، فلا ينبغي لأحد أن يعرض حاجته على الله إلا بواسطة هؤلاء؛ لأنهم يشفعون له عند الله، وأن الله لا يرد شفاعتهم لأجل جاههم..».

على كُلٍّ، فبمرور الزمن، صار للعرب شريعة في عبادة الأصنام، فلهم أحكامهم وعباداتهم وقرابينهم؛ فقد كانوا يخصصون نصيبًا من المأكل والمشرب والأنعام والحرث لأصنامهم. وقد قسموا قرابينهم من الأنعام إلى أنواع، فكان منها: البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحامي.

أما البحيرة فهي الناقة التي يشق صاحبها أذنها فلا يُركب ظهرهُا، ولا يجز وبرها، ولا يَشربُ لبنَها إلا ضيف أو مسكين. وأما السائبة فهي التي يسيبها الرجل وفاءً لنذره. وأما الوصيلة فهي التي تولد ومعها ذكرٌ في بطنٍ واحدة. وأما الحامي فهو الفحل إذا نتج له عشر إناث متتابعات ليس بينهن ذكر(44).

وكان من دينهم أيضًا، الاستقسام بالأزلام عند الأصنام. والزَّلَم هو السهم، ويكون مكتوبًا عليه: «افعل أو لا تفعل». وكانت أحيانًا تُوضع في الكعبة، فإذا هَمَّ الرجلُ من العرب بأمرٍ ما، ذهب إلى سادن الكعبة حتى يستقسم له؛ أي يخلط له السهام ثم يسحب منها واحدًا، فإن أخرج الذي كُتِبَ عليه «افعل» مضى فيما همَّ به وإلَّا قعد عما أراده.

وقِيلَ إنه كان عند (هُبَل) قداحٌ سبعة، كل قدحٍ منها كُتب عليه شيء، قدح للدِّية إذا اختلفوا من يحملها منهم، يضربون القداح ثم يختارون منها، فإن اختاروا لأحد، فخرج الذي كتب عليه الدية، فهو يتحملها، وهكذا قدح فيه «نعم»، وقدح فيه «لا»، وقدح فيه «منكم»، وقدح فيه «ملصق»، وقدح فيه «من غيركم»، وهذه الثلاثة يضربون بهن عند التشكيك في النسب، وقدح فيه «المياه» يضربون به عند الحفر للماء. فكان العربيُّ بهذه الطريقة يستشيرُ أصنامه ويسترشد بهن.

أمَّا الكعبة، فقد حظِيت بالمكانة العظمى في صدور العرب، فهي أقدم رموزهم الدينية، وتركة أبيهم إسماعيل، وإليها يحجون من كل فجٍّ عميق مُلبِّين نداء إبراهيم (عليه السلام). وكانت قريشٌ تتفضل بالكعبة على سائر العرب، حتى صارت رأس العرب وإليها ترجع الزعامة الدينية، فكان القرشيُّ إذا فاخرَ الناسَ قال: «نحن قريش، بنو إبراهيم، وأهل الحرمة، وولاة البيت، وقطان مكة وساكنوها، فليس لأحدٍ من العرب مثلُ ما لنا».

وكان العرب يؤمنون بأخبار الكهنة والعرافين، ويلجئون إليهم، يستحكمونهم ويستفتونهم. كما كان العرب أهل طِيَرة وتشاؤم، وكانوا يعتقدون أن الميتَ لا يسكن قبره حتى يؤخذ بثأره، فإذا لم يؤخذ بثأره ظلَّت روحه تطير في الفلوات وتقول: «اسقوني، اسقوني».

ومن دين العرب أيضًا، الأشهر الحرم، وهي أشهرٌ يترك فيها العرب القتال، ويأمنون على أنفسهم وأهليهم وأموالهم، وفيها أسواقهم وحجهم. ورغم أنها معروفة ومعيَّنة منذ إسماعيل (عليه السلام)؛ فإنهم كانوا يسمونها كل عام في مكة على شهادة من الناس.

وأشهر العرب على الترتيب هي: (المحرم، وصفر، وربيع الأول، وربيع الآخر، وجُمادَى الأولى، وجُمادَى الآخرة، ورجب، وشعبان، ورمضان، وشوال، وذو القعدة، وذو الحجة).

والأشهر الحُرُم منها هي: (ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب).

ولأنَّ العرب كانت لا تطيق أن تعيش ثلاثةَ أشهرٍ بلا قتال أو غارة، فإنهم ابتدعوا النسيء، والنسيء هو التأجيل، فكانوا ينسئون الشهر الثالث -وهو المحرم- فيستحلونه ويحرمون مكانه (صفرًا). وكما كانت الأشهر الحرم تُعلن في مكة، كان النسيء كذلك يُعلن في مكة، حيث يخرج رجل علم من كنانة فيقول: «أنا الذي لا أُعاب، ولا أخاب، ولا يُرَدُّ لي قضاء».

فيقول الأشهاد: «صدقت، أنسئنا شهرًا».

فيحلَّ لهم المحرم ويحرِّم عليهم صفرًا حتى يوافقَ عدة ما حرم الله من الشهور وهي أربعة.

قال عميرُ بن قيس:

ألسنا الناسئين على معدّ

شهور الحل نجعلها حرامًا

ومما ابتدعته العرب أيضًا في دين إبراهم طقوسًا في الحج، منها: أنَّ قريشًا لما رأوا منزلتهم من العرب قالوا: «لا ينبغي لنا أن نخرج من الحرم إلى الحل». فكانوا لا يقفون بعرفة، ولا يفيضون منه.

ومنها أنهم حرَّموا أن يأكل الحجاج طعامًا جاءوا به من خارج أرض الحرم.

ومنها أنهم أحيانًا كانوا يطوفون وهم عُراة. ولا يدخلون بيوتهم حال إحرامهم إلَّا من ظهورها!

***

كان في الجزيرة أيضًا أقوامٌ على اليهودية، يزعمون أنهم على دين موسى (عليه السلام)، وقد قالت العرب (يهود)، نسبةً إلى (يهوذا) وهو سبط بني إسرائيل الذي في نسله ملوكهم. وكان وجود اليهود في الجزيرة ناتجًا عن هجرتهم إليها من خارجها. فقديمًا، وبينما كان اليهود يعيشون في فلسطين من أرض الشام، إذ وضعهم القدرُ بين شِقَّي رحا. فقد طُحِنَ اليهود على يد الفتوح البابلية والأشوريَّة من كل الجهات الشرقية. كما أذاقهم (بُختنصر) شتَّى أنواع العذاب. فاندفع كثيرٌ من اليهود نحو الجنوب هاربين بدينهم إلى جزيرة العرب. ثمَّ مرَّت السنون وتعرَّض مَنْ بقي من اليهود للاضطهاد الديني عندما تحوَّلَ دينُ الروم إلى النصرانيَّة، فاندفع اليهود في موجة هجرة جديدة إلى جزيرة العرب. على أثرِ تلك الأحداث توطَّن اليهود في أماكن معينة من الجزيرة مثل يثرب وخيبر وتيماء.

وكان في الجزيرة أيضًا، نصرانيون، وهم يزعمون أنهم على دين عيسى (عليه السلام)، وقالت العرب (نصارى) أو (نصرانيون) نسبةً إلى قرية (الناصرة) التي بدأ فيها المسيحُ (عليه السلام) دعوته، أو اشتهرت بها. وكان النصارى في الجزيرة متوطنين في الجنوب في اليمن ونواحيها وفي الشمال في بعض ديار تغلب وربيعة، وفي الشام.

هذه هي الصورة الثابتة لخريطة الدين في جزيرة العرب وجوارها في لحظة ما، لكنَّ الأيام والسنين فتحت طُرُقًا للانتقال والتفاعل بين الأديان المختلفة في بعض بقاع الجزيرة. والمراقب الجيد لتحركات التاريخ في تلك المنطقة يلاحظ أن كل القصص والحكايات الدينية بدأت فجأة تتمحور بشكلٍ ما حول جزيرة العرب، وأصبحت كل الأحداث تؤدي إلى أرض الحجاز!

وهذا يظهر جليًّا إذا حولنا هذه الصورة الثابتة إلى صورةٍ متحركة، من خلال القصص الآتية.

***

في فترة من عدم استقرار الملك في حمير، وثب عليها رجلٌ من خارجها يُدعَى (لختيعة ذو شناتر)، واستولى على الملك، وأجبرَ الناسَ على قبوله.

كان (لختيعة) ملكًا فاسدًا فاسقًا مشهورًا بعمل قوم لوط (عليه السلام)، وحتى يتمكن من الملك، ويضمن ألَّا ينازعه فيه أحدٌ من أبناء ملوك حمير السابقين، كان إذا سمع أنَّ غلامًا من سلسال الملوك قد بلغَ الحلم، أتى به ثم وَقَعَ عليه فوصمه بالعار؛ فلا يكون له سبيل للملك أبدًا.

سمع (لختيعة) ببلوغ (يوسف ذي نواس) الحلم، وكان غلامًا جميلًا سليلًا للملوك، فبعث إليه (لختيعة) على عادته القبيحة، لكن (يوسف) كان فطنًا ذكيًّا، فأخذ معه سكينًا أخفاها بين نعله وقدمه، حتى إذا أدخله الجند على (لختيعة)، واختلى به، وثب عليه فقتله بالسكين واحتزَّ رأسه، ثم هرب.

فلمَّا شاع الخبرُ خرجت حمير كلها تبحث عن الغلام، فلمَّا أدركوه ملَّكوه عليهم، فصار (يوسف ذو نواس) ملكًا لحمير وأشهر ملوك اليمن.

كان من بقايا أتباع عيسى (عليه السلام) الذين يعيشون بأطراف الشام، رجلٌ يُدعَى (فيميون)، وكان رجلًا صالحًا سائحًا له كرامات ومُجاب الدعوة، إذا دُعِي للمرضى وأصحابِ العاهات يُشفون.

أسَرَ (فيميون) رجلٌ من الأعراب في غارةٍ ما، ثُمَّ باعه إلى رجلٍ من أهل اليمن. وبينما كان أهل نجران يعبدون شجرةً يعلِّقون عليها حُلَى نسائهم. لاحظ الرجل الذي اشترى (فيميون). أن البيت يستسرج فيمتلئ بالنُّور كُلَّما قام (فيميون) للصلاة! فأعجبه ذلك فأحبَّه وأطلقه. فاختار (فيميون) لنفسه مكانا متطرفًا، وبنى لنفسه صومعةً صغيرة.

توطَّد ملك ذي نواس على اليمن بمرور السنين، وكان من حاشيته ساحرٌ حاذقٌ عليمٌ بفنون السحر، فلمَّا رأى من نفسه الكبر والعجز قال لـ(ذي نواس الملك): «إني قد كبرت سني كما ترى، وإني أخاف على علمي أن يضيع بموتي، فابعث إليَّ بغلام أورثه فنِّي». فوافق الملك ووقع الاختيار على غلام يُدعَى عبد الله بن الثامر.

كان الغلام في طريقه لدروس السحر يمر بصومعة الراهب فيميون، ويوم بعد يوم، استحسن الغلام ما يراه من أمر الراهب وتلاواته وصلواته، ورغب في التعلُّم منه. فدخل عليه وجلس إليه يتتلمذ.

فصارَ الغلام يتردد على الساحر والراهب!

وفي يوم من الأيام، قطعت حيَّةٌ عظيمةٌ على الناس طريقهم، ففزعوا، لكن الغلام عمد إلى مكانها ثم أخذ حجرًا وقال: «اللهم إن كان أمر الراهب أحبَّ إليك من أمر الساحر فاقتلها». فرماها بالحجر فقتلها.

ثم أتى الراهبَ وقصَّ عليه ما حدث، فقال الراهب: «إنَّ لكَ لشأنًا، وإنك ستُبتلى، فإن ابتُليتَ فلا تدلنَّ عليَّ».

تعلَّم الغلامُ من الراهب (فيميون)، وغمرَ الإيمانُ قلبَه، وصار في الناس وله كراماتٌ وعجائب، ودعوةٌ لا تردها الأقدار. والقوم يعتقدون أنَّه أصبحَ ساحرًا متمكنًا!

وكان للملك (يوسف ذي نواس) ابن عمٍّ أعمى، فلما بلغه خبر الغلام ذهب إليه طامعًا في رد بصره. فقال له الغلام: «إن ردَّ الله عليك بصرك، تؤمن به؟».

قال: «نعم».

فدعا الغلام: «اللهم إن كان صادقًا فرُدَّ عليه بصره». فأبصر.

فلمَّا دخلَ الرجلُ بصيرًا على ابن عمه الملك، اندهش الأخير، وفرح بالغلام الذي تعلَّم السحر وأتقنه، حتى صارَ يرد للعين الظلماء نورَها، وأرسل إليه يحتفلُ به.

عندما دخل الغلام، عاجله الملك مبتهجًا قائلًا: لقد بلغ من سحرك ما أرى!

فقال الغلام: «أنا لا أشفي أحدًا، إنما يشفي الله».

وقعت الحروف القليلة على الملك العظيم الذي خلَّصَ اليمنَ من (لختيعة) في بداية حياته وكأنَّها الصواعق، فاشتدَّ غضبه وقال للغلام: «من علمك ما تقول؟». فتمسكَ الغلام بالصمت حتى عذَّبه الملك فدلَّه على الراهب.

لَمَّا جيء بالراهب (فيميون)، وُضِعَ المنشار على مفرق رأسه، وخيَّره الملك بين الرجوع عن دينه أو القتل، وبالطبع شُقَّ الرجل نصفين، ثم فعل الملك ذلك بابن عمه أيضًا!

فرَغَ الملك للغلام، فأمر الجند أن يأخذوه إلى جبل عالٍ ثم يطرحوه من قِمَّته. فذهبوا بالغلام وصعدوا به الجبل، فلمَّا همُّوا أن يطرحوه، رجفَ بهم الجبل فهلكوا جميعًا إلا الغلام!

عاد الغلام إلى الملك، وقال له في وجهه: «كفانيهم الله». فأمر الملك أن يؤخذَ الغلام في سفينة ثم يُلقى في البحر، فغرقت السفينةُ ونجا الغلام، وعاد إلى الملك!

انتشرَ خبرُ الغلام بين أهل اليمن، فأعظمه الناس، وعلموا أنه على حق. فلمَّا خاف الملك من اتِّباع الناس للغلام قرر أن يقتله بالسيف، فقال له الغلام: «إنك لن تقدرَ على قتلي حتى تجمع أهل مملكتك ثم ترمني بسهمٍ بعد أن تقول: بسم الله رب الغلام». ففعَل الملك وقُتلَ الغلام، فصاح الناس: «آمنَّا برب الغلام».

فلمَّا نزل بالبلاد ما كان يحذره (ذو نواس)، أغلق أبوابَ مملكته، وخدَّ أخدودًا عظيمًا وملأه بالنيران، وعرضَ الناسَ عليها، فمن رجع عن دِين الغلام، تركه، ومن تمسَّكَ ألقاه. وما نقم منهم إلَّا أن آمنوا بالله العزيزِ الحميدِ.

***

هرب من هذه المحرقةِ العظيمةِ رجلٌ، فقطع الجزيرة كُلَّها حتى أتى قيصر الروم يستنصِره كونه أقوى نصيرٍ لدينِ المسيح. فلمَّا رأى قيصرُ بُعدَ المسافةِ بينه وبين اليمن، جنَّبَ جيشَه تلك المفازة الْمُهلِكة وأرسل مع الرجل رسالةً إلى نجاشيّ الحبشة يأمره فيها بقتال (يوسف ذي نوّاس) والتمكين للنصرانية في اليمن.

فلمّا كانت الحبشة تدينُ بالنصرانيَّة وبينها وبين اليمن مضيقٌ بحريٌّ صغير، أرسل النجاشيُّ جيشًا عظيمًا من سبعين ألف مُقاتل وعليهم قائد معروف يُدعَى (أرياط). فلمَّا تقابل الجيشان هُزِمَ (يوسُف ذو نوّاس) هزيمةً مُنكرةً.

استتبَّ أمرُ اليمن لأرياط، فأصبحت اليمن ولايةً للحبشة. ثمَّ إن رجلًا من كبارِ قادةِ أرياط يُدعَى (أبرهة) طَمِعَ في مُلكِ اليمن، وانقلب على أرياط، ونازعه في مُلكِه، فانقسم الجيشُ بينهما. فلمَّا طال النزاع أرسل أبرهة إلى أرياط يدعوه للمبارزة، واتفق أبرهة مع رجلٍ من أنصاره، أن يقتل (أرياط) إن لاحظ الغلبة له. فلما تقابلا، رمى أرياط رمحه فشرم وجه أبرهة. فتدخَّل الرجل الغادر فقتل أرياط من ظهره. ثم اجتمع الجيش على أبرهة الأشرم ملِكًا. وأرسل بعد ذلك أبرهة إلى النجاشي يسترضيه، فرضيَ عنه النجاشي وأبقاه على اليمن.

لَمَّا تمكَّن (أبرهةُ) من اليمن قام ببناء كنيسةٍ عظيمةٍ، استخدم فيها رخامًا وأحجارًا وأمتعةً من بقايا قصر بلقيس، وملأها بصُلبانٍ من ذهبٍ وفضةٍ، وجعل فيها منابر من عاجٍ وأبنوس. وارتفع بها ارتفاعًا شاهقًا وتوسَّع فيها اتساعًا باهرًا. ثم أرسل إلى النجاشي قائلًا: «إنِّي قد بنيتُ لك كنيسةً لم يُبنَ مثلُها لملكٍ قبلك. ولستُ بمنتهٍ حتى أصرف حج العرب إليها».

فلمّا تسامع العرب بتلك الرسالة غضبوا. فذهب رجلٌ من (كنانة) إلى اليمن ثم تسلَّلَ إلى الكنيسة فأحدث فيها ثم عاد إلى بلاده. فلمَّا علم (أبرهة الأشرم) غضب غضبًا شديدًا، فقيل له: «هذا فعل رجلٍ من العرب علم أنَّك تريد أن تصرف حج العرب إلى كنيستك».

فأقسم أبرهة الأشرم على أن يهدم بيت العرب ذاك.

خرج أبرهة الأشرم بجيشٍ عظيمٍ قاصدًا مكَّة مصطحبًا فيلًا ضخمًا يُدعَى (محمود). فلمَّا علمت العرب بخروجه هذا أعظموه، وقرَّر بعضهم أن يقاتل دون بيت الله، حتى لو كان العدو جيشًا مهيبًا. فقابل أبرهة الأشرم في البداية جيشًا من العرب في اليمن فهزمهم. ثم قابل في الطريق جيشًا من (خثعم) فهزمهم. فلمّا بلغ الطائف سالمته ثقيف وأرسلت معه دليلًا إلى مكَّة!

وقد كانت ثقيف تُعظِّم اللَّات وتساويها بالكعبة؛ فقررت أن تفدي اللَّات بالكعبة.

ثم بلغ أبرهة الأشرم مشارف مكَّة، وأصاب فرسانه بعيرًا ترعى فجعلوها في مغانمهم. وأرسل أبرهة الأشرم رسولًا إلى مكَّة يُخبر أهلها أنه لم يأتِ للحرب والدماء، بل جاء لهدم البيت والرحيل! فعاد الرسول إلى أبرهة الأشرم ومعه عبد المطلب بن هاشم وهو يومئذٍ سيد مكَّة. فلمَّا دخل عبد المطلب على أبرهة الأشرم، رأى أبرهة رجلًا جميلًا له هيبةٌ ووقار، فأجلَّهُ وأكرمه، حتى إنَّه جلس معه على نفس البساط وخالف عادات الملوك.

بدأ أبرهة الأشرم في التحدُّث وبينهما ترجمان، فقال لعبد المطلب: «ما حاجتك؟». فقال عبد المطلب: «حاجتي أن يردَّ عليَّ الملكُ بعيري التي أصابها جنودُه».

فقال أبرهة مُستعجبًا: «لقد كنتَ أعجبتني حين رأيتُك، ثم زهدتُ فيك حين تكلّمتَ؛ أتُكلِّمُني في بعيرِك وتترك بيتًا هو دينُك ودين آبائك لا تكلِّمني فيه؟!».

فقال عبد المطلب: «إنِّي أنا ربُّ الإبل، وللبيت ربٌّ يمنعه».

فقال أبرهة: «ما كان لأحدٍ أن يمنعه منِّي».

فقال عبد المطلب: «أنت وذاك».

ثم أمر أبرهة بردِّ الإبل إلى عبد المطلب.

فلمَّا عاد عبد المطلب تمسَّك بحلقةِ باب الكعبة، وظلَّ يدعو هو ونفرٌ معه ويستنصرون اللهَ على أبرهة وجُندِه. ثم انصرفوا إلى أطراف مكَّة وجبالها ينتظرون ما يفعله أبرهة. لكن رجلٌ من أهل مكةَ هَمَسَ في أذن الفيل عندما مرَّ عليه: «ابرك محمود أو ارجع راشدًا من حيث أتيت فإنَّك في بيت الله الحرام». فبرك الفيل! ولم يتحرك خطوة تجاه الكعبة رغم ضرب الجند له. فكان إذا وجَّهه الجندُ إلى أي جهة غير الكعبة قام مُهرولًا، وإذا وجَّهوه للكعبة بَرَكَ.

وبينما الجند وأبرهة في عجبهم، إذ امتلأتِ السماء فوقهم بجماعات من الطيور، يحمل كلُّ طائرٍ منها أحجارًا صغيرة يُلقي بها على أبرهة وجندِه. وكانت الحجارة لا تصيب أحدًا إلَّا أهلكته. فولَّى الجيش هاربًا، وهم يتساقطون ويتناثرون. وأُصيب أبرهة فحمله الجند وجسده يتساقط أنملة أنملة كأنَّه ينصهر حتى مات. فهلك الجيش مهلكةً عظيمةً لم يرَ الناسُ مثلَها. وأيقن العربُ أنَّ البيتَ مُحصَّنٌ من قِبَلِ ربِّ إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

***

في أرضِ فارس، في بيتِ سيِّدٍ من سادات قريةٍ من قُرى (صبهان)، نشأَ شابٌّ سلمانُ الفطرة، طاهرُ القلب، يُحبُّه أبوه حُبًّا فريدًا، يحوطُه ويصونه كما تُصانُ الجارية.

وفي يومٍ ما اضطُرَّ والد هذا السلمان إلى إرساله في حاجةٍ له في بعضِ أملاكِه، فاستجابَ سلمانُ البارُّ؛ وفي الطريق مرَّ على كنيسةٍ يصدر منها أصواتُ نصاراها يُصلُّون، فأُعجِبَ سلمانُ بهذه التلاوات التي يسمعها لأوَّل مرة في حياته، واستسلمَ بسرعةٍ إلى فضوله ودخل الكنيسةَ لينظرَ ما يصنع أصحاب هذه الحناجر. فلمَّا رآهم أحبَّ أمرَهم ورغب في دينهم، وكان في الأصلِ مجوسيًّا بالوراثة. ثم سألهم عن موطن هذا الدين، فقالوا له: «بالشام».

رَجع سلمانُ إلى أبيه نصرانيَّ الهوى مجوسيَّ النَّسَب، فلمّا جَلَسا أخبرَ سلمانُ أباه بأمرِ الكنيسة، فقال أبوه: ليس في ذلك الدِّينِ خير، دينُك ودينُ آبائك خيرٌ منه. جُملةٌ عقيمةٌ لم تصمُد أمام قلبِ سلمانَ النَّقِيّ، فبعث إلى هؤلاء النَّصارى أن إذا قَدِمَ عليكم رَكْبٌ من الشامِ أخبروني. فلمَّا حَضَرَ تُجَّارٌ من الشام، ووصل خَبَرُهُم إلى سلمانَ، لَحِقَ بهم وَقتَ عَوْدَتِهِم، وخَرَج معهم إلى الشامِ، وتَرَكَ أباه وكَلِمتَه العقيمة، وتَرَك فارس ونارها الضَّرِيمة.

لمَّا بَلَغَ سلمانُ الشامَ، سَأَلَ عن أفضل أهلِ هذا الدين عِلْمًا، فدَلَّه الناسُ على أسقفٍ بإحدى الكنائس، فجاءه سلمان فقال: إنِّي قد رغبتُ في هذا الدين، فأحببتُ أن أكونَ مَعَكَ

وأخدِمُكَ في كنيستِك فأتعلّم منك وأصلَي معك، فوافَقَه الأسقف. فلمّا طالَ مُكثُ سلمانَ معه، رأى سلمانُ منه شرًّا كثيرًا وسوءًا في الخُلُق؛ إذ كان الأسقفُ يأمرُ الناسَ بالصَّدقةِ ثم إذا جَمَعَها اكتنزها لنفسه.

فلمَّا مات هذا الأسقف أخبَرَ سلمانُ رَعَايا الكنيسة بأمرِه، ودلَّهم على موضِعِ كنزه، فقاموا بصلبِ أسقفهم الدَّجَّال ورجموه بالحجارة، ثم جاءوا برجلٍ آخر فجعلوه مكانه. فلازَمَه سلمانُ، ورَأى فيه صلاحًا وزُهدًا وعِلمًا، وأحبَّه حُبًّا عظيمًا، وعاشَ معه زمنًا. فلمَّا حضَرَ الرجلَ الصالحَ موتُه، وآنَ أوانُه، قال له سلمان: «إنِّي قد كنتُ معك، وأحببتُك حُبًّا لم أحبُّه شيئًا قبلك، وقد حَضَرَكَ ما ترى من أمرِ الله تعالى، فإلى من توصِي بي؟ وبِمَ تأمرني؟». فقال الرجلُ: «أي بُنيَّ، والله ما أعلمُ اليومَ أحدًا على ما كنتُ عليه، فقد هَلَكَ الناسُ وبدَّلوا وتركوا أكثرَ ما كانوا عليه، إلَّا رجلًا في (الموصل) فالحق به».

فَلَحِقَ سلمانُ برجلِ الموصلِ، وظلَّ معه حتى حضَرَه الموتُ، وأوصى سلمانَ بالالتحاق برجلٍ في (نصيبين). وظلَّ سلمانُ ينتقل من رجلٍ صالحٍ إلى آخر، كُلُّهم يموتُ ويوصيه بصحبةِ غيره، حتى قال آخِرُهم وكان في (عمورية): «أي بُنيَّ، والله ما أعلمه أصبحَ اليومَ أحدٌ على مثلِ ما كُنَّا عليه من الناس آمرك به أن تأتيَه، ولكنَّه قد أظلَّ زمانُ نبيٍ، وهو مبعوثٌ بدين إبراهيم (عليه السلام)، يخرج بأرض العرب، مَهْجَرُه إلى أرضٍ بين حرَّتيْن بينهما نخل، وبه علامات لا تخفى، يأكلُ الهديَّة، ولا يأكلُ الصَّدقةَ، وبين كتفيه خاتمُ النبوَّة؛ فإن استطعتَ أن تلحقَ بتلك البلاد، فافعل».

مَكَثَ سلمانُ في عمورية حتى لقيَ نفرًا من العرب من بني كلب، فاتَّفقَ معهم على أن يحملوه إلى أرض العرب مُقابل ثمنٍ معيَّن. وفي الطريق، عندما بلغوا وادي القُرى، غدروا بسلمان وأسَرُوه عبدًا، ثم باعوه إلى رجلٍ يهودي باعه إلى يهودي آخر من بني قُريظة. وبدأ سلمان يعيشُ حياةَ الرِّقِ في يثرب، وبينما كان في ظُلمةِ اعتقاده بفشله في الوصول إلى بلاد العرب حُرًّا، لاحَظَ أن يثربَ تقع بين حرَّتيْنِ وأن بها نخلًا، فَعَرَفها من وصفِ صاحبِه، وعَلِمَ أنَّه قد حُمِلَ إلى مهجر النبيِّ المنتَظَر حَمْلًا إجباريًّا. وما عليه سوى الانتظار.

(40) بعض تلك الأمم العتيقة تغيَّر دينها أكثر من مرة عبر التاريخ.

(41) وفقًا للكامل لابن الأثير، يُقالُ: إنَّ أمه (هيلانة) هي التي بنت كنيسة القيامة.

(42) فلسفة دينية عاتية في القدم، وهي إحدى أديان المجوسية. أسسها وقام بها زرادشت، وهو رجل دين فارسي وُلِد في أذربيجان. والزرادشتية من الديانات المأهولة إلى الآن.

(43) هذه التماثيل الخمسة كانت معروفة قديمًا، ثم أحيا العربُ ذكرها.

(44) لم يتفق العلماء في تفسير تلك الألفاظ، ويبدو أن تلك الألفاظ كانت تحمل معاني تختلف من قبيلة لأخرى.

الفصل التاسع نجم أحمد!

في نفس العام الذي وقعت فيه حادثة الفيل، وارتجَّت بها أرض الحجاز، ارتجس إيوان كسرى في ليلةٍ مخيفة، فسقطت منه أربع عشرة شرفة!

أصبحَ (كسرى) على هذا الهدد، وقبل أن يقف له على سببٍ، عاجله خبرٌ بجفاف بحيرة ساوة! فَزِعَ الرجلُ تحت تاجه، وأرسل إلى كل وزرائه يستجمعهم. فلمَّا اجتمعوا وقبل أن يحدثهم بما يفزعه، وَرَدَ عليهم كتابٌ فيه خبر صادم، فقد خمدت نيران فارس! فازداد كسرى رُعبًا، فهذه النيران لها عمَّالٌ، ولم تُخمد منذ ألف سنةٍ تقريبًا! فما الذي يحدث؟

أخبر (كسرى) وزراءه المجتمعين بأمر الإيوان والبحيرة، ولمَّا انتهى قال قاضي قضاته وكبير وزرائه: «أيها الملك، قد رأيت رؤيا عجيبة في هذه الليلة؛ رأيت إبلًا صعابًا تقود خيلًا عِرابًا قد قطعت دجلة وانتشرت في بلادنا». فقال له كسرى وقد زاد فزعُه: «فما يكون هذا؟». فقال: «حدثٌ يكون في ناحيةِ العرب».

في ناحيةِ العرب، وتحديدًا في مكةَ وبينما كان القرشيون في مجالسهم إذا برجلٍ يهودي من التجار يصرخ في الناس سائلًا: «هل وُلِد فيكم الليلةَ مولود؟» فأجابه الناس وهم على هيئتهم: «والله ما نعلم». فإذا بالرجل يقول: «اسمعوا واحفظوا ما أقول لكم، وُلِدَ هذه الليلةَ نبي الأمَّة الأخيرة».

لمَّا فُضَّت المجالس، ورجع الناس إلى بيوتهم، علموا من أهليهم أنَّ وليدًا لعبد الله بن عبد المطلب قد بدأ عمره الليلة. فخرج بعض الناس إلى الرجل اليهودي يخبرونه، فقال لهم: «اذهبوا معي حتى أنظرَ إليه». فلمَّا حُمِلَ إليه الوليد وكُشِفَ عن ظهره، سقط الرجل مغشيًّا عليه! فلما أفاق، قال له الناس: «مالك ويلك؟» فقال: «قد ذهبت والله النبوة من بني إسرائيل».

استغربَ القرشيون كلام هذا اليهودي، ما علاقة هذا الوليد ببني إسرائيل وكتبهم وأنبيائهم؟

لعلَّه يهذي.

لم تمر الأيام، حتى انتشر هذيان الرجل اليهودي، فكأنَّها حُمَّى قد اجتاحت يهود الحجاز، فيهود يثرب كلهم يقولون كلامًا مماثلًا:

«طلع اليوم نجم نبي آخر الزمان!

طلع اليوم نجم أحمد».

كان اليهود في يثرب على يقينٍ بأنَّ دينَ العرب زائلٌ لا مَحالة، وأنَّه عمَّا قريب سيُبعثُ نبيٌّ آخرِ الزمان فيهدم هذه المُعتقدات الباطلة. فكان الرَّجلُ اليهوديُّ إذا نالَ عربيٌّ منه ما يكره قال: «تقاربَ زمانُ نبيٍّ يُبعث نقتلكم معه قتلَ عادٍ وإرم».

اعتاد أهل يثرب على سماع كلامٍ أغرب من هذا على ألسنة اليهود؛ فقد قيلَ إنّه في يومٍ ما، خرج يهوديٌّ ووقفَ على الناسِ ووعظهم بكلمات عجيبةٍ ذكر فيها القيامةَ والبعثَ والحسابَ والميزانَ والجنَّةَ والنار. فلمَّا تعجَّبَ السَّامِعون قالوا: «ويحك! أَوَتَرَى هذا كائنًا؟ أنّ الناسَ يُبعثون بعد موتهم إلى دارٍ فيها جنّةٌ ونارٌ ويُجزون فيها أعمالهم؟!».

قالَ: «نعم، وإنَّ أحدَكم ليتمنَّى أن يوضعَ اليومَ في أعظم تنُّورٍ في الدار على أن ينجو من تلك النارِ غدًا».

فقال الناس: «ويحك! فما آيةُ ذلك؟».

قال: «نبيٌّ مبعوثٌ من نحو تلك البلاد». وأشار بيده إلى الجنوب.

فقالوا: «ومتى تراه؟».

فنظرَ اليهوديُّ إلى أصغر الحضور سنًّا وأشار إليه قائلًا: «إن يستنفذْ هذا الغُلامُ عُمُرَهُ يُدْرِكْهُ».

ومن اليهود الذين ذاعَ صيتُهم في يثرب، وعُرِفَ عنه إخبارُه بهذا النبيِّ المنتظر، رجلٌ جاء من الشام يُقالُ له ابن الهيّبان. وممَّا ذُكرَ عنه، أنَّه لمَّا حضره الموتُ قال: «يا معشرَ يهود، ما ترونه أخرجني من الشام أرضِ الخمر والخمير إلى أرض يثرب أرضِ البؤس والجوع؟».

فقالوا له: «أنت أعلم».

فقال: «إنّي قدمتُ إلى هذه البلدة أترقَّبُ خروجَ نبيٍّ قد أظلَّ زمانُه، وهذا البلدُ هو مهجره، فكنت أرجو أن يُبعثَ وأنا حيٌّ فأتّبعه».

ثم نصَحَهم باتِّباعه عندما يظهر؛ ومات!

يبدو أن جزيرة العرب تُهيَّأ لأمرٍ ما...

***

لم يكتفِ العربُ بأنَّهم كانوا يؤخِّرون آخر الأشهر الحُرُم الموصولة وهو (المُحَرَّم)، ويُحِلّونه؛ لأنَّهم لا يُطيقون الحياةَ السلميَّة لمدة ثلاثة شهور متتالية حتى عدوا كُل حُرمة أخرى كانت تمنع دماءهم وتعصمهم من شرور أنفسهم.

هل سيظلُّ العربُ يعيشون وفقًا لقانونهم الذي لا يرقى عن قانون الغابةِ إلى الأبد؟

هل سيأتي يومٌ على العرب يجتمعون تحت رايةٍ واحدة كباقي الأمم المجاورة؟

وإلى متى ستصمدُ وثنيةُ العربِ هذه؟

كلُّها أسئلةٌ مشروعةٌ جدًّا باتت تخطر على عقولِ أصحاب العقول في كل ناحيةٍ من نواحي الجزيرة. فالعربي ذو اللُّب يعلمُ يقينًا أنَّ دينَ العرب ليس هو دين إبراهيمَ (عليه السلام)؛ وأنَّ نمطَ حياةِ العربِ لا يؤدِّي إلَّا إلى شر. فأنّى للعرب بمخرجٍ من كل هذا الظلامِ العتيم؟

كان هذا التساؤل الأخير، هو الشعور العام لدى حُكماء العرب.

في ذي القِعْدة، وبينما كان الناسُ مُجتمعون في سوق عكاظ، يبيعون ويبتاعون، أو يلقون القصائد يتبارزون؛ إذ لاحظَ الجميعُ قدومَ (قُسّ بن ساعدة) وتأهُّبَه لإلقاء خطبة على أهل السوق. كان (قُسّ) شيخًا كبيرًا معروفًا له حِكمة، وكان الناسُ يحرصون على سماع وتناقل كلام الحكماء. عندما اقترب الناس وانتبهوا وألقوا سمعهم ليُنصِتوا، بدأ (قسٌّ) خطبتَه:

«يا أيها الناسُ، اجتمعوا واسمعوا وعوا. من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آتٍ آتٍ. ليلٌ داجٍ، وسماءٌ ذات أبراج، وبحرٌ عُجاج. جبالٌ مرسيَّة، وأنهارٌ مجريَّة. إنَّ في السماء لخبرًا، وإنَّ في الأرضِ لعبرًا. مهادٌ موضوع، وسقفٌ مرفوع، ونجومٌ تمور، وبحارٌ لا تغور. مالي أرى الناسَ يذهبون فلا يرجعون! أرَضوا بالمقام فأقاموا؟! أم تُرِكوا فناموا؟! أقسم (قسٌّ) بالله قسمًا لا ريب فيه، إنَّ للهِ دينًا هو أرضى له من دينِكم هذا.

في الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر

لمّا رأيت مواردًا للموت ليس لها مصادر

ورأيتُ قومي نحوها يمضي الأصاغرُ والأكابر

لا يرجعُ الماضي ولا من الباقين غابر

أيقنتُ أنِّي لا محالةَ حيث صارَ القومُ صائر».

أنصت الناسُ إلى خطبةِ (قسٍّ) كلها، نثرها ونظمها، ثم عاد كُلّ إلى مشغلتِه. لعلّهم خَلا كلّ واحدٍ منهم إلى خليله، يُناقشه فيما وعظهم به (قسٌّ). ولعلَّ الكِبَارَ منهم قد انصرفوا ولسانُ حالِهم يقول: صَدَقتَ أيّها العجوز. ولعلَّ شابًّا ذكيًّا ابتسم في خفيةٍ ناظرًا لكبار السنِّ قائلًا بين أركان صدره: ضِعْتم أيها الشيوخ، وقد أنجو أنا.

***

في مكَّة، بجوار البيت الحرام، جَلَسَ (ورقةُ بن نوفل) و(زيد بن عمرو بن نفيل) و(عثمان بن الحويرث) و(عبيد الله بن جحش). وكان هذا اليوم يوم عيدٍ لأحدِ أصنامهم. فقالوا لبعضهم وكانوا قد أدركهم ما أدرك قسًّا وطفح كيلُهم: «نعلمُ والله ما قومكم على شيء، لقد أخطئوا دين أبيهم إبراهيم. ما حجرٌ نطيفُ به لا يبصر ولا يضرُّ ولا ينفع! يا قوم، التمسوا لأنفسكم؛ فإنَّكم والله ما أنتم على شيء». ثم تفرَّق الأربعة وهم على يقينٍ خالصٍ أن العربَ قد ألحدوا وضلُّوا وأضلُّوا. وبدأ كُلُّ واحدٍ منهم يفكِّر في نفسه، أيبقى على ما هو عليه أم يلتمس لنفسه دينًا حقًّا يلقى به ربَّ إبراهيم (عليه السلام) وربَّهم؟

فأمّا (عبيد الله بن جحش) فأقام على حاله ولم يُبدِّل دينَ آبائه، وآثرَ العاداتِ على البحث والجَولات. وأمّا (عثمان بن الحويرث) فتنصَّرَ ولحقَ بالشام، وقَدِمَ على قيصر، وحسنت منزلتُه عنده. وأمَّا (ورقة بن نوفل) فتنصَّرَ أيضًا، وبقي في مكَّةَ، وترقَّى في علم النصرانية، وبلغ فيها مبلغًا. وأمَّا (زيد بن عمرو بن نفيل)، فله قصَّةٌ طويلةٌ على عكس أصحابه الثلاثة.

لم يتنصَّرْ (زيدٌ) كصاحبيه، ولم يستسلم للتيَّار في محيط قريش، بل واجهَ نفسَه وأرسى للحقِّ قواعد في قلبِه، وعَلِمَ أنَّه لا يرغبُ عن مِلَّة إبراهيم إلَّا من سفه نفسَه، فقرَّرَ أن يكونَ حنيفًا مُسلِمًا شاهدًا بأنّه لا إله إلَّا الله، واعتزل الأوثان وحَرَّمَ على نفسه ذبائح القوم. ولم يُخفِ عن أهل الوادي أمرَه، بل نَصَحَهم وحاجَّهم؛ إذ قال: «الشاةُ خلقها الله، وأنزلَ لها من السماءِ ماءً، وأنبت لها من الأرض، فلِمَ تذبحوها على غيرِ اسمِ الله؟». واعتادَ الناسُ على أن يروه مُسندًا ظهرَه إلى الكعبة يُبَكِّتهم قائلًا: «يا معشرَ قريش، والذي نفسي بيده، ما أصبح أحدٌ منكم على دينِ إبراهيم غيري». وزادَ الشِقاقُ بينه وبين قومه، وفَطِنَ القُرشيّون خَطَرَ زيدٍ على موروثاتِهم، فألَّبُوا عليه أخاه (الخَطَّاب بن نفيل)، فآذاه أذىً كثيرًا حتى إنَّه حبسه عن مكةَ ومنعه من دخولِها، فكان زيدٌ لا يدخلها إلَّا سِرًّا.

ظلَّ زيدٌ وحيدًا يُشاقِقُ قومَه ويتلمَّس دينَ إبراهيم (عليه السلام) فلا يجده، فينظر للسماء نظرةً حائرةً قائلًا: «اللَّهم إنِّي لو أعلمُ أحبَّ الوجوهِ إليكَ لعبدتُك به، ولكنِّي لا أعلم». كلمةُ مُحبٍّ مُخلصٍ يتهادى قلبُه ولا يتعلَّقُ إلّا بالله. كلمةٌ لم يقدرها أهلُ الأرضِ قدرها، ولعلَّها تكونُ كنزًا له في دارٍ خيرٍ من دارِه.

خرج زيدٌ من مكَّةَ باحثًا عمَّن يوصِله إلى دين إبراهيم (عليه السلام)، خَرَج وشعاره: «إلهي إلهُ إبراهيم، وديني دينُ إبراهيم». طالت رحلةُ زيد، وذهب إلى الأحياء والبُلدان، حتى بلغ الشام وأتى راهبًا ينتهي إليه عِلمُ النصرانيَّة، فلمَّا سأله زيدٌ عن دين إبراهيم قال الراهب: «إنّك تسألُ عن دينٍ ما أنت بواجدٍ من يحملك عليه اليوم، لقد دَرُسَ عِلمُه وذهب من كان يعرفه، كان إبراهيمُ حنيفًا، لم يكن يهوديًّا ولا نصرانيًّا، وكان يُصلِّي إلى هذا البيتِ الذي ببلادك، فَعُد من حيثُ جئتَ، فإنَّ الله يبعثُ من قومِك من يأتي بدينِ إبراهيم الحنيف، وهو أكرمُ الخلقِ على الله».

فخرجَ زيدٌ من الشام قاصدًا مكةَ، حتى إذا كان بأرض (لخم) عَدَا عليه رجالٌ فقتلوه. ومات القُرشيُّ الوحيد الذي كان يقول في تَلبيتِه: «لبَّيك لا شريك لك ولا ندَّ لك، لبَّيك مُتعبّدًا مرقوقًا».

وكان مما حدث أيضًا في هذه الفترة، ودلَّ على سيطرة العقول على أجساد أصحابها، وأنَّ العربَ ملُّوا غيَّهم وضلالَهم، حلفٌ عُقدَ في دار عبد الله بن جدعان التيمي، وكان أطرافه هم بنو هاشم، وبنو المطلب، وبنو أسد، وبنو زهرة، وبنو تيم، حيث تعاهد الجميع على ألَّا يجدوا في مكة مظلومًا إلَّا قاموا معه حتى تُردَّ مظلمتُه. وسُمِّي هذا الحلف (حلف الفضول).

***

في الجنوب، بعد هلاك (أبرهة)، انتهى ملك اليمن إلى ولده (مسروق بن أبرهة). فلمَّا طال البلاء على أهل اليمن، خرج (سيف بن ذي يزن الحميري)، وأتى (النعمان بن المنذر) في الحيرة، وشكا إليه وقوعهم تحت ملك الحبشة. فأخذه (النعمان) إلى (كسرى) حتى يستنصره.

في حضرة (كسرى)، لما أُذنَ لـ(سيف بن ذي يزن) بالكلام قال: «أيها الملك، غلبتنا على بلادنا الأغربة».

فقال كسرى: «أي الأغربة؛ الحبشة أم السند؟».

فقال: «بل الحبشة، وقد جئتُك لتنصرني، ويكون ملك بلادي لك».

فقال كسرى: «بعدت بلادك مع قلة خيرها، فلم أكن لأورطَ جيشًا من فارس بأرض العرب. لا حاجةَ لي بذلك». ثم أعطاه عشرة آلاف درهم.

لمَّا خرج (سيف بن ذي يزن) من عند (كسرى)، أخذ ينثر الدراهم ويوزعها على الناس في الطرقات. فلمَّا بلغ ذلك (كسرى)، بعثَ إليه. فلما أتاه وسأله عن فعلته العجيبة قال: «وما أصنع بهذا؟». ثم قال مُرغِّبًا في أرض اليمن: «ما جبال أرضي التي جئت منها إلا ذهبٌ وفضة».

فجمع (كسرى) وزراءه ثم قال لهم: «ماذا ترون في أمْر هذا الرجل وما جاء له؟».

فقال أحد الوزراء: «أيها الملك، إنَّ في سجونك رجالًا قد حبستهم للقتل، فلو أنك بعثتهم معه، فإن يهلكوا كان ذلك الذي أردت بهم، وإن ظفروا كان ملكًا ازددته». فبعث معه (كسرى) من كان في سجونه ينتظر القتل، وكانوا ثمانمئة.

استعمل (كسرى) على الجيش رجلًا منهم يقال له (وهرز)، وكان من أسنِّهم وأحسبهم.

خرج الجيش في ثمان سفائن، غرقت سفينتان، وبلغت ست سفائن ساحل عدن. فذلك قول سطيح «يخرج عليهم من عدن». لما وطأ الجيش أرض اليمن، جمع سيف بن ذي يزن من استطاع من قومه وضمهم إلى جيش وهرز، ثم قال له: رجلي مع رجلك حتى نموت جميعًا أو نظفر جميعًا.

فقال وهرز معجبًا: «قد أنصفت».

لما اصطفَّ الجيشان قال وهرز: «أروني ملكهم». فقالوا: «أترى رجلًا على الفيل، عاقدًا تاجه على رأسه، بين عينيه ياقوتة حمراء؟». قال: «نعم». فقالوا: هو ذاك. فقال لهم: اتركوه. ثم قال: «إني سأرميه، فإن رأيتم أصحابه لم يتحركوا، فاثبتوا حتى أوذنكم، فإني قد أخطأت الرجل. وإن رأيتم أصحابه قد استداروا وتجمعوا حوله، فقد أصبت الرجل، فاحملوا عليهم».

وَتَرَ وهَرَزَ قوسه، وكانت شديدة لا يوترها غيره، ثم رمى (مسروقَ بن أبرهة) فصكَّ الياقوتة التي بين عينيه، واخترق السهم رأسه وخرج من قفاه. فاستدار جيش الحبشة حول قائدهم، فحملت عليهم الفرس فهزموهم. فصار ملك اليمن إلى فارس.

***

في بصرى من أرض الشام، وصلت للتو قافلةٌ تجاريةٌ من قريش يترأسها أبو طالب بن عبد المطلب. نزلَ الركب في مكانه المعتاد بجانب صومعة الراهب الغامض (بحيرى) الذي يراهم كل عام لكنَّه لا يُكلِّمهم، ولا يخالطهم، ولا يؤاكلهم.

عندما جلس أهلَ القافلة يتروحون، يتكلمون ويتسامرون، ولعلهم يستذكرون معًا ما فعله الرجل اليهودي الذي رأى (وليدَ عبد الله بن عبد المطلب)، ويتحدثون بشأن أخبار يهود يثرب وثرثرتهم بخصوص ميلاد نبي سينتزع منهم فضلهم على سائر الناس. بينما القوم على هذه الحال، إذا بالراهب بحيرى يقدم عليهم ويدعوهم إلى الطعام.

تعجب الجميع؛ ما بالُ أهل الكتاب في جزيرة العرب يتصرفون على غير طبائعهم؟!

قال الراهب: «إني صنعت لكم طعامًا يا معشر قريش، فأنا أحب أن تحضروا كلكم، كبيركم وصغيركم، وعبدكم وحُرُّكم».

فقال رجل من قريش: «والله يا بحيرى، إن لك لشأنًا اليوم! ما كنتَ تصنع هذا بنا وقد كنا نمرُّ بك كثيرًا، فما شأنكَ اليوم؟».

قال: «صدقتَ، قد كان ما تقول، ولكنكم ضيوف وقد أحببت أن أكرمكم وأصنع لكم طعامًا تأكلون منه كلكم».

لما اجتمع أهل القافلة على الطعام، فاجأهم بحيرى قائلًا: «يا معشر قريش، لا يتخلفن أحدٌ منكم عن طعامي».

قالوا: «يا بحيرى، ما تخلَّف منا أحدٌ إلّا غلامٌ حدثُ السن، جلس في رحالنا».

فقال بحيرى: «لا تفعلوا، ادعوه فليحضر».

فقام رجلٌ من القوم فأتى بالغلام وأجلسه معهم.

ظلَّ (بحيرى) يرصد كل حركة للغلام ويلحظه لحظًا شديدًا، كأنَّه يبحثُ فيه عن ضالَّةٍ ما، حتى إذا فرغَ القوم من طعامهم، قام (بحيرى) وذهبَ إلى الغلام وقال له: «يا غلام، أسألكَ بحقِ اللاتِ والعُزَّى إلَّا أخبرتني عما أسألك عنه».

فقال الغلام: «لا تسألني باللات والعزى شيئًا؛ فوالله ما أبغضتُ شيئًا بغضي لهما».

فقال له بحيرى: «فبالله أخبرني». وجعل يسأله عن أشياء كثيرة.

فلمَّا فرغَ أقبل على سيد القومِ أبي طالب وقال: «ما هذا الغلام منك؟».

قال: «ابني».

قال: «ما هو بابنك، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حيًّا».

فقال أبو طالب: «فإنَّه ابن أخي».

فقال بحيرى: «فما فعل أبوه؟».

قال: «مات وأمه حُبلى به».

قال: «صدقتَ. فارجع بابن أخيك إلى بلده، واحذر عليه اليهود، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفتُ ليبغُنَّه شرًّا، فإنَّه كائنٌ لابن أخيك هذا شأنٌ عظيم».

فما كان من أبي طالب إلا أنه خرج سريعًا من بصرى عائدًا بالغلام إلى مكَّة.

الفصل العاشر ذبحٌ وفداء

كان مشهدًا مُخيفًا وموقفًا غريبًا؛ تفاجأ به أهلُ مكَّة، وتفاجأ به كلُّ ذي لُبٍّ بَلَغَهُ الخبرُ في أنحاء الجزيرة.

استسلم القرشيُّون وخلَّوا بين (أبرهة) وبين البيت الحرام، فسُحِقَ أبرهةُ وجنودُه وأفيالُه!

لقد قال عبد المطلب لأبرهة: «أنت وذاك»، فكأنَّه يقول في نفسه ساخرًا: «أرنا ما عندك». فهل كان عبد المطلب على دينٍ حقٍّ ويعلم أنه منصورٌ بلا ريب؟

كان عبد المطلب والمكِّيون يعبدون الأوثان. وكان أبرهةُ وجيشُه يدينون ببقيةٍ من دين عيسى (عليه السلام). فكيف يُنصَرُ عُبَّادُ الحجارةِ على أبرهة؟ أم أن هذه النُّصرة لم تكن للقرشيين وكانت للبيت ذاته بغض النظرِ عن أهلِ الوادي! لعلَّها كانت كذلك، ولكن ألم يدخل (بُختنصر) بيت المقدس ويُدمِّر فيه ويُعمل في أهله السيوف؟ وكان أهل بيت المقدس آنذاك هم رجالٌ يدينون بدين موسى (عليه السلام). فلِمَ يُنصَرُ البيت الحرام، وأهله على الشرك وعدوّهم على دينٍ وكتاب، بينما يُهزَمُ بيت المقدس، وأهله على دينٍ وكتاب وعدوّهم على الشرك؟

يبدو أنَّ البيت كان يُهيِّئُ لأمرٍ عظيم.

ولمَّا حار الناس، استسلمت عقولهم لقول الشاعر:

وإنَّ غدًا وإنَّ اليومَ رهنٌ

لأمرٍ ما يُقامُ له عظيمِ

رسَّخت حادثةُ الفيل زعامةَ قريشٍ الدينية. وأصبحت تلك الزعامة جزءًا من دين العرب الذين يُقدِّسون البيت.

كان لعبدِ المطلب مكانةٌ عظيمةٌ في قريش، فكان لا يوزنُ برجلٍ آخر إلا رجحَ به، ومصداقُ ذلك أنَّه كان ينادمُ حربَ بن أمية، وهما يومئذٍ سيدان لا ينازعان. وكان لعبد المطلب جارٌ يهوديٌّ يعمل بالتجارة، فلمَّا زاد ماله، غاظ ذلك حربَ بن أمية، وأخذ يدبر لقتله!

في النهاية أغرى أمية بن حرب رجلين من فتية قريش بقتل الرجل وسرقةِ ماله، وكان الرجلان هما عامر بن عبد مناف، وصخر بن عمرو بن كعب التيمي(45). فلمَّا علم عبد المطلب بمقتل جاره، ظلَّ يبحث عن قاتله حتى عرف الرجلين، فلمَّا طلبهما استجارا بحرب

بن أمية. فذهب عبد المطلب إلى حرب ولامه على فعلته حتى تغالظا في القول، ثم اختصما إلى نفيل بن عبد العزى العدوي(46).

فلمَّا أتيا نفيلًا، قال لحرب: «يا أبا عمرو، أتنافر رجلًا هو أطول منك قامة، وأوسم وسامة، وأعظم منك هامة، وأقل منك ملامة، وأكثر منك ولدًا، وأجزل منك صفدًا(47)، وأطول منك مددًا؟ وإني لأقول هذا وإنك لبعيد الغضب، رفيع الصوت في العرب، جلد المريرة»(48).

فغضب حربٌ، وقال: «من انتكاسِ الزمان أن جُعِلتَ حكمًا».

وأخذ عبد المطلب الدية والمال المسروق وردَّها إلى ابن عم اليهودي، وترك منادمة حرب، ونادمَ عبد الله بن جدعان التيمي.

كأنِّي بعبدِ المطلب شاردًا، بعد حادثةِ الفيل، يتقلَّبُ خيالُه بين جنبات ذلك الوادي المنحصر بين الجبال، يتذكر مصائبَ قديمةً أصابته، ثم نُجِّي منها بأعاجيب تشبه هزيمة (أبرهة) من جماعات الطيور تلك.

لقد تُرك عبدُ الطلب طفلًا صغيرًا في حجر أُمِّه الخزرجية في يثرب، بعدما مات أبوه (هاشم) في رحلةٍ تجاريةٍ إلى غزَّة. فلمَّا صبا عبد المطلب تفاجأ بعمِّه المطَّلب بن عبد مناف -الذي كان قد ورِث هاشمًا في شرفه وسيادته- يحنو عليه ويأخذه إلى مكَّة ليعيش بين أعمامه في قريش.

لم ينسَ عبد المطلب دخوله مكَّة أبدًا، وكيف ينسى وقد ختمه ذلك الموقف ختمًا أبديًّا لا يُنسَخ. إنَّ أهل مكَّة لمَّا رأوا المطلب عائدًا ومعه صبيٌّ راكبًا خلفه، ظنُّوا أنَّه عبدٌ جديدٌ قد اشتراه المطَّلب، فقالوا هذا عبد المطلب، وقبل هذه المقولة بلحظات لم يكن عبد المطَّلب يعرف لنفسه اسمًا إلَّا (شيبة). ولكن غلب عليه في قريش اسمه الجديد حتى بعدما عرف الناسُ أنَّه (شيبة بن هاشم) أخو المطلب.

لمَّا مات المطَّلب، جاءت الرفادة والسقاية إلى عبد المطَّلب، فكان لذلك أهلًا، وأحبَّه الناس وسوَّدوه عليهم. ثم زادت في حياته الأعاجيب.

كان عبد المطلب نائمًا في الحجر عندما أتاه آتٍ فقال: «احفر طيبة».

فقال عبد المطلب: «وما طيبة؟».

فذهب عنه، وأتاه في اليوم التالي وهو في مضجعه فقال: «احفر برَّة». وفي اليوم الذي يليه أتاه وقال: «احفر المضنونة». وفي كل مرة يسأله عبد المطلب فلا يجيبه! حتى كان

اليوم الرابع، فقال له آمِرُه: «احفر زمزم».

فقال عبد المطلب: «وما زمزم؟».

قال: «لا تنزف أبدًا ولا تذم»(49). تسقي الحجيج الأعظم، وهي بين الفرث والدم، عند نقرة الغراب الأعصم عند قرية النمل.

في هذه المرة، استيقظ عبد المطلب وقد وقعَ في قلبه صدقُ ما رأى، خاصَّةً وقد تحدَّد له مكان الحفر، فما عليه إلَّا أن يحفر عند قرية النمل التي ينقر عندها الغراب. فلمَّا وجدَ عبد المطلب هذا الموضع، وكان بالقرب من (إساف) و(نائلة)، أخذَ المعول واصطحب معه ولده الوحيد (الحارث)، ثم بدأ في الحفر.

لما بدأ عبد المطلب في الحفر، قامَ إليه بعضُ وجهاء قريش وحاولوا إثناءه عن الحفر بالقرب من الصَّنَمَيْن، لكنَّه تجاهلهم وقال للحارث: «زُد عني». واستكمل الحفر.

صحيحٌ أنَّ الناس لمَّا رأوا إصرار عبد المطلب -سيدهم- تركوه وخلوا بينه وبين ما يريد، إلَّا أنَّه في هذه اللحظة تخيل لو أن قريشًا أنكرت عليه الحفر وأرادت أن تصده. فلو كان هذا، هل يكفيه ولده الحارث للدفع عنه؟

تمنَّى ساعتها عبد المطلب لو أن له عشرة من الأولاد، يزداد بهم عِزًّا على عِزِّه، ونذرَ لو أنَّ الله أعطاه ذلك، ليذبحنَّ منهم واحدًا!

ظلَّ عبد المطلب يحفر حتى بدا له الطي، فلمَّا رآه، كَبَّر، فانتفض الناسُ وهبُّوا إليه وعلموا أنه أدرك حاجته.

وجد عبد المطلب عين زمزم، ووجد معها الكنوز التي دفنتها جرهم قديمًا عند جلائها من مكة على يد خزاعة، فأتى القرشيون إليه وقالوا: «يا عبد المطلب، إنها بئر أبينا إسماعيل، وإنَّ لنا فيها حقًّا، فأشركنا معك فيها».

فقال: «ما أنا بفاعل، إن هذا الأمر قد خُصِّصت به دونكم، وأُعطيته من بينكم».

فقالوا: «أنصفنا، فإنا غير تاركيك حتى نخاصمك فيها».

قال: «فاجعلوا بيني وبينكم من شئتم، أحاكمكم إليه».

فاختاروا كاهنة بني سعد هذيم، وهي كاهنة بأشراف الشام.

ركب القوم وخرجوا قاصدين الشام، وكانوا وفدًا ممثلًا لكل قبيلة من قريش، وفيهم وفد عبد المطلب نفسه وهو نفرٌ من بني عبد مناف. وكانت الأرض إذ ذاك مفاوز، فلمَّا كانوا في بعض الطريق بين الحجاز والشام، فني ماء عبد المطلب ووفده، وظمئوا حتى أيقنوا بالهلكة، فاستسقوا من معهم من باقي الوفود، فأبوا عليهم خوفًا من الظمأ، فكلٌّ يريد أن ينجو بنفسه.

لمَّا رأى عبد المطلب ذلك قال لقومه: «إني أرى أن يحفرَ كل رجل منكم حفرته لنفسه بما بكم من قوة الآن، فكلما مات رجلٌ دفنه أصحابه في حفرته ثم واروه، حتى يكون آخرنا رجل واحد، فضيعةُ رجل أيسر من ضيعة ركب كامل». ففعلَ القوم، وجلس كل واحد بجانب حفرته ينتظر الموت.

ثم إن عبد المطلب استنكر رأيه الأول وقال لأصحابه: «والله إن إلقاءنا بأيدينا هكذا للموت، لا نضرب في الأرض ولا نبتغي لأنفسنا، لعجز، فارتحِلوا فإنه عسى الله أن يرزقَنا الماء ببعض البلاد».

كل هذا وباقي الوفود ينظرون.

فلمَّا تقدم عبد المطلب إلى راحلته، وركبها، انفجرت من تحت خُفِّها عين ماء عذب، فكَبَّرَ عبد المطلب وكبَّر أصحابه، ثم شرب وشربوا، وملئوا أسقيتهم، ثم دعا عبد المطلب باقي الوفود قائلًا: «هلم إلى الماء، فقد سقانا الله، فاشربوا واستقوا».

فقالت الوفود: «قد والله قُضِيَ لك علينا يا عبد المطلب. والله لا نخاصمك في زمزم أبدًا. إن الذي سقاك هذا الماء بهذه الفلاة، لهو الذي سقاك زمزم، فارجع بنا إلى مكة راشدًا».

بعد سنين، وبينما كان عبد المطلب في غمرة فرج الدنيا، وقد رُزِقَ بعشرة نفر، وصاروا منعة وحصنًا يلوذ به؛ إذ تذكَّر نذره القديم بذبحِ أحدِ أولادِه إذا بلغوا عشرة.

جمعَ عبد الطلب بنيه، وأخبرهم بنذره القديم، ثم دعاهم للوفاء به، فأطاعوه كلهم، وقالوا: «كيف نصنع؟». قال: «ليأخذ كل رجلٍ منكم قدحًا ثم يكتب اسمه فيه، ثم ائتوني».

فلمَّا فعلوا ما أمرهم أبوهم أخذهم ودخل بهم على (هُبَل) في جوف الكعبة، وقال لصاحب القداح: «اضرب على بنيَّ هؤلاء بقداحهم هذه، وأخبره بنذره».

أخذ صاحب القداح قداحَ بني عبد المطلب، وضرب بها، فخرج قدح ولده عبد الله. وكان عبد المطلب متعلقًا بعبد الله تعلقًا شديدًا، لكنه غالب نفسه، فغلبها، ثم أخذ الشفرة وأخذ عبد الله، وأقبل به على إساف ونائلة ليذبحه!

لمَّا انتقل الخبر، فزعت قريشٌ كلها، وهب الناس من أنديتهم إلى عبد المطلب قائلين: «ماذا تريد يا عبد المطلب؟!».

قال: «أذبحه».

فقالوا جميعًا وفيهم إخوة عبد الله: «والله لا تذبحه أبدًا، حتى تُعذَرَ فيه؛ فإنك إن فعلت، صارت سُنَّةً في قريش، ولا يزال الرجل يذبح ابنه، فما بقاء الناس على هذا؟!».

وقال المغيرة بن عبد الله المخزومي(50): «والله لا تذبحه أبدًا، وإن كان فداؤه بأموالنا فديناه»(51).

ظلَّ الناس يكلمون عبد المطلب، دافعين به عن ذبح ولده، حتى وصلوا في النهاية إلى أن يذهبَ عبد المطلب إلى عرَّافة معروفة، علَّها تجد له مخرجًا يتحلل به من نذره دون أن يقتل عبد الله.

أتى عبدُ المطلب العرافةَ، وأخبرها بأمره، فقالت: «كم الدية فيكم؟».

فقال: «عشرٌ من الإبل».

قالت: «فارجعوا إلى بلادكم، ثم قرِّبوا صاحبكم، وقرِّبوا عشرًا من الإبل، ثم اضربوا عليها وعليه القداح. فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا من الإبل حتى يرضى ربكم، وإن خرجت على الإبل، فانحروها عنه، فقد رضي ربكم، ونجا صاحبكم».

فعادوا إلى مكةَ، وفعلوا كما أمرتهم العرافة، فلمَّا ضربوا القداح، خرج القدح على عبد الله، فزادوا عشرًا من الإبل ثم ضربوا القداح، فخرج القدح على عبد الله، فزادوا عشرًا من الإبل ثم ضربوا، فخرج القدح على عبد الله، فظلُّوا يزيدون من الإبل حتى بلغت مئة، فضربوا القداح، فخرج القدح على الإبل، فنُحرت كلها ثم تُركت لا يصد عنها إنسان ولا سبع.

شريطٌ طويلٌ من المصائب والأعاجيب يمرُّ أمام عبد المطلب، لعلَّه بعد حادثة الفيل التي توّجت أعاجيب حياته، يشعر بأن له قَدَرًا محوريًّا أو أنَّه جسرٌ يُمهِّدُ لأمرٍ ما.

تطورت قريشٌ كثيرًا منذ قصي بن كلاب، فقريش التي يحكمها عبد المطلب كانت قد أقامت لنفسها حكومةً ودولةً؛ حيث استحدث القرشيُّون مناصب جديدة غير تلك الستة التي كانت حِكرًا على بني قصيٍّ. فأصبح لمكَّة سفيرٌ مسئول عن شئونها الخارجية، وقائد للجيش يُسمَّى صاحب القُبَّة أو الخيمة، ومناصب أخرى.

قبل أن تنجحَ الأيَّامُ في أن تُنسيَ عبد المطلب حادثة الفيل، جاءته البشرى بحفيدٍ من ولده المُفَدَّى عبد الله، فذهب مُهرولًا إلى طفله الجديد وحمله فامتلأ قلبه حُبًّا له. فلمَّا فعل ما يفعل الأب بابنه الوليد، اختار له اسم (مُحَمَّد).

كانت تسمية عبد المطلب لحفيده هي بصمته الأخيرة في صحيفة حياته العجيبة؛ فبعد هذا التاريخ بثماني سنوات استسلم إلى فراش الموت ونصب لنفسه مأتمًا فجمع بناته حوله وقال لهنَّ: «ابكين عليَّ حتى أسمعَ ما تقُلنَ قبل أن أموت». ثم مات فبكته قريشٌ كلها، ورثاه الناسُ بالكثير من الأبيات. وانتقلت الرفادة والسقاية إلى ولده (العباس).

بعد موت عبد المُطَّلب بسنواتٍ قليلة اندلعت حرب الفِجار بين قبائل (كنانة) بما فيها قريش وبين قبائل (قيس عيلان).

(45) جد أبي بكر، رضي الله عنه.

(46) جد عمر بن الخطاب، رضي الله عنه.

(47) أعظم منك عطاءً.

(48) قوي العزيمة.

(49) لا يقل ماؤها.

(50) والد الوليد بن المغيرة.

(51) كانت فاطمة بنت عمر أم عبدالله امرأةً مخزومية لذلك أراد بنو مخزوم فداءه.

الفصل الحادي عشر شُهُبٌ تحترق

في مكَّةَ، بعد حادثةِ الفيلِ بخمسٍ وعشرين سنة، كان رؤساءُ قبائلَ مُضَر مُجتمعين في منزِل (عمرو بن أسد بن عبد العُزَّى) يستمعون إلى أبي طالب بن عبد المُطَّلب يخطُبُهم قائلًا:

«الحمد للهِ الذي جعلنا من ذُرِّيةِ إبراهيمَ، وزَرْعِ إسماعيل، وجَعَلَنا حَضَنَةَ البيتِ وسُوَّاسَ حَرَمِه، وجعل لنا بيتًا مَحجوجًا وحَرَمًا آمنًا، وجعلنا الحُكَّامَ على الناس. ثُمَّ إنَّ ابن أخي هذا (مُحَمَّد بن عبدِ الله) لا يُوزن برَجُلٍ إلَّا رَجَحَ به شَرَفًا ونُبلًا وفضلًا وعَقلًا، فإن كان في المَالِ قَلٌّ، فإن المالَ ظِلٌّ زائل، وأمرٌ حائل، ومُحَمَّدٌ مِمَّن قد عَرَفتم قرابتَه، وقد خَطَبَ إليكم راغبًا كريمَتَكم (خديجة)، وقد بذَل لها من الصَّدَاق ما حكم عاجِله، وآجله اثنتا عَشَرَة أوقيَّة ذهبًا ونصف الأوقيَّة، وهو والله بعد هذا له نبأٌ عظيمٌ وخطرٌ جليلٌ جسيم».

فَلمّا فَرَغ أبو طالب من خطبته، قال عمرو بن أسد وهو عمُّ خديجة: «هذا البِضْعُ لا يُقرع أنفُه». أي: مُحمَّدٌ كفءٌ كريمٌ لا يُردُّ نكاحُه.

تَسَامَعَ الناسُ بالخبر، نَعَم، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قُصيٍّ، أفضل القرشيِّين نَسَبًا، وسليلُ الأسرة المؤسِّسة للمُجتمع المكِّي الحالي، يفوزُ بطاهرةِ قريش، خديجة بنت أسد بن عبد العُزَّى بن قُصيٍّ، أرجحِ النساءِ عقلًا وأكثرِهم مالًا، وأعظمِهم نسبًا. يا لها من زيجةٍ مثاليَّةٍ، يرتقي بها شِقَّاها إلى أطيافِ الثُّريَّا، فقلَّما تجود الفُرَصُ بتكافؤٍ كهذا، فالأمرُ يتعدَّى التحامَ نسَبِهما المرموق في قصي. إنّ قريشًا كُلَّها لا تعرِف لرجلٍ ما تعرفه لهذا الزوج، ولا تعرف لامرأةٍ ما تعرفه لهذه الزوجة. ولكن، يا تُرى، من بادر بطلب الآخر؟ فكلاهما يُتَنَافَسُ عليه. كيف فاز حفيدُ عبد المُطَّلب الشابُّ بامرأةٍ رغب فيها كلُّ رجال قريش، ويئسوا لمّا أدركوا أنَّ مقامها في جوِّ السماء مكانُه، وأنَّ باعَهم قصيرٌ عن نوالِ الكواكبِ؟

هُناكَ شاهدٌ يَعلمُ تفاصيل الإجابة عن هذا السؤال، فلنستمع إلى شهادته. تقول (نفيسة بنت منينة) صديقةُ خديجة: «كانت خديجة بنت خويلد امرأةً حازمةً جلدةً شريفةً، مع ما أراد اللهُ بها من الكرامةِ والخير، وهي يومَئذٍ أعظم قريش نَسَبًا وأكثرهم مالًا، وكُلُّ قومِها حريصٌ على نكاحِها لو قَدِرَ على ذلك، قد طلبوها وبذلوا لها الأموال، فأرسلتني سرًّا إلى محمد بن عبد الله، بعد أن رَجَعَ في عيرها من الشام. فقُلتُ: يا محمد ما يمنعك أن تتزوج؟

فقال: ما بيَدِي ما أتزوجُ به.

قُلتُ: فإن كُفِيتَ ذلك، ودُعِيتَ إلى الجمالِ والمالِ والشرفِ والكفاءةِ ألا تُجيب؟

قال: فَمَن هي؟

قُلتُ: خديجة.

قال: وكيف لي بذلك؟

قُلتُ: عَلَيَّ.

قال: فأنا أفعل.

فذهبتُ إلى خديجةَ بالخبر، فأرْسَلَت إلى عَمِّها عمرو بن أسد؛ لأنَّ أباها قد ماتَ قبل حرب الفِجَار».

نَعَم؛ كانت خديجة بالكمال الذي يجعلها إذا وجدت ضالَّتَها في رجلٍ، بادرت إليه.

بدأ القُرَشِيُّون يشعرون ببزوغ نَجْمِ حفيدِ عبد المُطَّلب الذي فازَ بطاهرةِ قريشٍ الأَسَدِيَّة. فقد كانت أفعالُه كُلُّها مُمَيزة ومُلْفِتة للانتباه؛ فلا أحدَ رأى منه زَلَّةً، فقد خَلَتْ حياتُه من كُلِّ خِيانةٍ أو كَذِبٍ أو سُكْرٍ أو استقسامٍ بالأزلام أو بذاءةِ لسانٍ أو سجدةٍ لِصَنَمٍ، وما زال الناسُ يذكرون قوله للراهب: «لا تسألني بِحقِّ اللَّاتِ والعُزَّى شيئًا فَوَالله ما أبغضتُ شيئًا قطُّ بُغضي لهما». وكان كُلُّ المكِّيين يتساءلون: ما بالُ حفيدِ سيدِنا يطوفُ بالبيْتِ ولا يتَمَسَّحُ بإساف ونائلة كعاداتنا؟! ما بالُه ذكيًّا فَطِنًا فصيحًا، ولا يقولُ الشِّعْرَ أبدًا؟!

رغم تَيَقُّن الجميع أن هذا الرجلَ له شأنٌ عظيم، ويكمُنُ شأنُه في تنزُّهِه عن مَثَالِب العرب؛ فإنَّ هذا لم يضع في قُلُوبِهِم حَسَدًا بقدرِ ما مَلَأها حُبًّا واحترامًا، فَلَعَلَّ سادةَ قُريشٍ كانوا يقولون لأنفسهم: «إنَّ هذا لَجَدِيرٌ بأن يكون حفيدًا لسيدِنا وأوسَطِنا نَسَبًا، وإنَّه لَفَخرٌ لِقريشٍ على سائرِ العَرَب. وإنَّهُ لسيدُ مكَّةَ لو أرادَ ورَغِبَ».

بعدَ خَمس وثلاثين سنة من واقعة الفيل، هاجمَ مَكَّةَ سَيْلٌ عَرِم، فأفسَدَ فيها، وأصابَ الكعبةَ وكادَ يهدُّها، الأمر الذي أجبرَ القرشيين على إعلانِ حالةِ الطوارئ والتفكيرِ في إعادةِ بناء الكعبة، فهي كنزُهُم وسببُ سيادتِهم على العرب، ورأس مالهم، فالقُرَشيُّ يدينُ للكعبةِ بِكُلِّ شيء.

ولِصِدقِ قريشٍ مع نفسها، ولتبجيلِها للكعبة وحُرمتِها، فَقَد عَزَمَ النَّاسُ على ألَّا يُدخِلوا في عمليةِ الترميم إلَّا مالًا طيِّبًا، فلا يَدخل في بناء كعبتهم مهرُ بَغِيٍّ، ولا بيعُ رِبا، ولا مظلمةُ أحد.

لمَّا وُضِعَت الخطةُ الماليَّة، وحانِ وقت التنفيذ، فَطِنَ الناسُ إلى شيءٍ مُخيف، حيثُ إن إعادة البناء تتطلبُ بالضرورة هَدَّ ما بقي من الكعبةِ إلى القواعد، ثُمَّ يُرفَعُ البناءُ من جديد؛ وهذا هو الأمرُ المُخيفُ، فمُعظم هؤلاء القُرشيُّين شاهدوا أبرهةَ وجيشَه يُسحَقون لِنفسِ السببِ الذي يخططون له الآن، صَحيحٌ أنَّهم يعلمون الفرقَ العظيم بين نِيَّتِهِم ونيَّةِ أبرهة، لكنَّ ما بقيَ في ذاكرتهم من تلك الواقعة كانَ أقوى من منطقهم وعقلِهِم.

حاولَ الوليدُ بن المغيرةُ -سيدُ مخزوم- أن يُعيدَ القومَ إلى التَّعَقُّلِ فَقَالَ لهم: «إنَّ الله لا يُهلِكُ المُصلِحين». ثم أَخَذَ المِعولَ وبَدأ يهدمُ في البيتِ قائلًا: «ساعدوني». لكنَّ النَّاسَ ما زالوا تحت وطأةِ خوفِهم من تلك الطيورِ وحجارتها، فقالوا للوليد: «بل ننتظرُ إلى الغد، فإن أصابكَ شيءٌ، رَجَعنا عن خطتنا، وإلَّا علِمنا أنَّ اللهَ يرضى عن خطتنا، فَهدمنا معك»!

فلمَّا أصبحَ الوليدُ مُعافى لم يصبه شيء، بدأ الناس في عمليةِ الهدم معًا وكُلُّهم يقول: «اللهم لا نُريدُ إلَّا خيرًا».

استمرَّ النَّاسُ في الهدمِ حتى وصلوا إلى حجارةٍ خضراء داخل بعضها في بعض، فَعَلِموا أن هذا هو أساسُ إبراهيم (عليه السَّلام)، فأدخلَ رجلٌ من العُمَّالِ عَتَلَةً بين حجرين ليقلعَ أحدَهما، فلمَّا بدأ الحجرُ في التَّزحزُحِ اهتزَّت مَكَّةُ كُلُّها! فخافوا وانتهوا وبنوا على هذه الحجارة العجيبة.

ولمَّا آنَ أوانُ وضعِ الحجرِ الأسودِ في مكانه، تنازَعَ النَّاسُ عِلمًا منهم بأنَّ هذا الحجر هو أشرف أحجار الدنيا، وكُلُّ قبيلةٍ لا تريدُ لغيرها هذا الشَّرَف. وكالعادة غلبَ على النَّاسِ حَمِيَّتُهم وأوشكوا على التحارب، وتوقَّفَ العملُ لأربع ليالٍ أو خمس، وكادوا أن يفشلوا لولا أن أبا أميَّة بن المُغيرة -وكان أسنَّ قريش- قال: «اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أَوَّل من يدخل من هذا الباب» وأشارَ إلى أحدِ أبواب المسجد، فرضوا وقبلوا، وظلُّوا يُحدِّقون ببابِ المسجد مُرتقبين من يكونُ حاكمًا عليهم في هذا الأمرِ الذي كادَ يُذيقُ بعضَهم بأسَ بعض. وإذا بمحمَّد بن عبد الله يدخلُ عليهم، فَفَرِحَ النَّاسُ وانشَرَحَت صُدُورُهُم وعلِموا أنَّ الله قد أراد بهم خيرًا وقالوا: «هذا الأمين، رضينا، هذا محمَّد».

كأنَّهم كانوا على يقين أنَّ حِكمةَ هذا الحَكَمِ ستُغنيهم عن أي قولٍ أو رأي، وستجدُ لهم مخرجًا من محبسِ تعصُّبِهم الأعمى، ولِمَ لا، وهو أرجحُ القرشيّين عقلًا؟

قضى مُحمَّدٌ بينهم بأن يُحضِروا ثوبًا ثم تحملُ كلُّ قبيلةٍ منه طرفًا، وأتى هو بالحجرِ فوَضَعه في وسط الثوب، حتى إذا بلغ الحُمَّالُ مكان الحجر الأسود، أخذه محمدٌ بيدِه ووضعه في مُستَقَرِّه. وهكذا تقاسمت قريشٌ كلُّها شرفَ حملِ ثوبٍ يعلوه الحجر الأسود، بينما حازَ حَكَمُهُم شرَفَ حملِ الحجرِ وحدَه.

***

لم تمر أربعون على حادثةِ الفيل حتى حدث أمرٌ عجيب.

لاحظَ العرب في سمائهم الصافية قذفًا عظيمًا متكررًا بالنجوم، فقد كثرت الشهب بشكل مفاجئ!

في ثقيف، بينما كان (عمرو بن أمية) -داهية القوم- جالسًا يتفكر في أمر تلك الشهب، إذا بالناس يأتون إليه فزعين ولائذين بحكمته، يقولون: «ألم ترَ ما حدثَ في السماء من القذف بهذه النجوم؟».

فقال عمرو: «بلى. فانظروا؛ فإن كانت معالم النجوم التي يُهتدى بها في البر والبحر وتُعرف بها الأنواء من الصيف والشتاء هي التي يُرمى بها، فهو والله طيُّ الدنيا وهلاك هذا الخلق الذي فيها. وإن كانت نجومًا غيرها، وهي ثابتة، فهذا أمرٌ أراده الله تعالى بخلقه».

بين قمم السراة ووديانها، وفي مساكن بني دوس، كان الكاهن (سواد بن قارب) شارد الذهن كأنه في برزخ بين الوعي واللاوعي، فلا هو نائم ولا هو يقظان؛ إذ أتاه رئيُّه الذي يمده بما يتكهن به وقال: «قم يا سواد فاسمع مقالتي، واعقل إن كنتَ تعقل. قد بُعِثَ رسولٌ من لؤي بن غالب، يدعو إلى الله وإلى عبادته». ثم أنشدَ:

عَجِبْتُ لِلجِنِّ وتِطلابِهَا

وَشَدِّهَا العِيسَ بِأَقْتَابِهَا

تَهْوِي إلى مَكَّةَ تَبْغِي الهُدَى

ما صادِقُ الجِنِّ كَكَذَّابِهَا

فارحَلْ إلى الصفوةِ من هاشِمٍ

ليس قُدامَاها كَأَذْنَابِهَا

في يثرب لما فزع الناس لأمر السماء، ذهبوا إلى كاهنٍ عجوزٍ قد أشرفَ على الثلاثمئة من عمره، يقالُ له: (خطر بن مالك). فلمَّا أتوه قالوا: «يا خَطر، هل عندك علمٌ من هذه النجوم التي يُرمى بها، فإنا قد فزعنا وخفنا سوء عاقبتنا؟».

فقال خطر: «عودوا إليَّ السَّحَر، أخبركم الخبر، ألخيرٍ أم لشرٍّ، أم لأمنٍ أم حَذَر».

فرجعوا عنه، ثم أتوه في وجه السَّحَر، فوجدوه قائمًا وشاخصًا ببصره نحو السماء كأنه ينتظر أمرًا ما، فلمَّا نادوه، أشار إليهم أن أمسكوا ولا تتكلموا.

وفجأة، قُذِفَ في السماء بنجم عظيم!

بينما الناس مأخوذون من الفجأة، صَرَخَ الكاهن العجوز قائلًا:

«أصابه أصابه، خامره عقابه، عاجله عذابه، أحرقه شهابه، زايله جوابه». ثم سَكَت والقوم في عَجَبٍ من سجعه. ثم صاح فيهم فجأة: «يا معشر قحطان، أقسمتُ بالكعبة والأركان، قد مُنِعَ السَّمعَ عتاةُ الجانِّ، بثاقبٍ بكفِّ ذي سلطان، من أجل مبعوثٍ عظيمِ الشان، يُبعثُ بالتنزيل والفرقان».

فاهتز القوم لكلماته وقالوا: «ويحك يا خطر، إنك تذكر أمرًا عظيمًا، فماذا ترى لقومك؟».

فقال: «أرى لقومي ما أرى لنفسي، أن يتبعوا خيرَ بني الإنس».

انتهى

بينما كان القرشيون في مجالسهم ومنازلهم وأنديتهم؛ إذ سمعوا مناديًا ينادي بإنذار الحرب المعروف (يا صباحاه!). ففزع الناس، وتحركوا وأخذوا يتتبعون نداء النذير، حتى من حبسه حابس أرسلَ من يأتيه بالخبر. وأخذ المنادي ينادي على القرشيين ويعيِّنَهم قبيلةً قبيلة: «يا بني فهر، يا بني عدي، يا بني عبد مناف...». حتى تأكدَ الناسُ أن الصوتَ آتٍ من ناحية الصَّفا، فاجتمعوا حوله ينظرون من المنادي...

ملحق الخرائط

أقاليم الجزيرة الخمسة في تقسيم العرب

مملكة ميديا في أقصى اتساعٍ لها

الإمبراطورية الفارسية الأولى التي أسسها كورش في أقصى اتساعٍ لها

الإمبراطورية الفارسية الثانية (الساسانية) في أقصى اتساعٍ لها

الإمبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية) وقد ابتلعت البحر الأبيض المتوسط

ملحق نسب العرب العدنانية

ذكرنا في هذا الملحق نسب العرب العدنانية دون نسب القحطانية؛ لأن هذا الأخير يمكن اختصاره فيما يخص كتابنا هذا في أنَّ العرب القحطانية الذين انتشروا في الجزيرة كانوا إمَّا العرب اليمانية الذين بقوا في اليمن، وإمَّا العرب الذين هاجروا من اليمن، ومنهم: الأوس والخزرج وخزاعة وغسَّان وأزد السّراة. قال ابن هشام: «وقحطان هو أبو العرب اليمانية كلهم». وقد ذكرنا هذا في ثنايا الكتاب.

أمَّا العرب العدنانية، فإنَّهم انتشروا وكثروا في ربوع الجزيرة وأحيائها، وأصبَحَ لهم النصيب الأكبر من الذِّكْر والغَلَبة. وهم عماد الأحداث التي مرَّت بها أمة العرب؛ لذلك سردناها ببعض التفصيل البسيط. وقد اعتنى المؤرخون والنسَّابون من قبلهم، بنسب عدنان؛ لأنه عمود السلسال الذي منه سيدُ الخلقِ عليه الصلاة والسلام.

كان من ذرية آدم (عليه السلام) نوحٌ (عليه السلام)، وكلاهما أبٌ للبشرية كلها، وكان من ولد نوح، سام. وأهل التحقيق مجتمعون على أنَّ العرب كلهم من ذرية سام بن نوح.

فمن ذريَّة سام بن نوح، كان إسماعيل بن إبراهيم بن تارح. وقد كانت لإسماعيل (عليه السلام) ذرية عظيمة. قال ابن إسحاق: «مات إسماعيل (عليه السلام) وعمره مئة سنة وثلاثين سنة، وترك اثني عشر ولدًا. ومنهم قيدار، ومن نسل قيدار، عدنان».

وكان لعدنان ولدان، هما عكّ، ومَعَدّ. فأنجبَ معدٌّ ثلاثًا: نزار وقضاعة وقنص، كما في الشكل رقم (1). فمن أشهر قبائل قضاعة كلب وجُهَيْنَة. ومن أشهر رجال قضاعة زهير بن جناب الكلبي الذي ذكرنا بعضَ أيامه في الكتاب.

أمَّا نزار، فكان من ولده، مُضَر وإيَّاد وأنمار وربيعة، كما في الشكل رقم (2). وهؤلاء الأربعة كانت لهم حكايات مشهورة عند العرب، كلها يدل على شدَّةِ نبوغهم وتوقُّدِهم. ومضر وربيعة هما شِقَّا رحا العرب العدنانية، فهم أغلب أهل الجزيرة، ومنهم كل القبائل والبطون المشهورة. فمن مضر، إلياس وقيس عيلان، كما في الشكل رقم (3). ومن قبائل قيس عيلان: هوازن وثقيف وغطفان. وثلاثتهم قبائل مشهورة كانت لها مكانة وشرَف. ومن بطون غطفان: قبائل مشهورة أيضًا وهي: عبس وذبيان وأشجع وأعصر كما في الشكل رقم (6). وبين عبسٍ وذبيان كانت أيام داحس والغبراء. وأمَّا إلياس، فكان من ذريته كِنانة، ولكنانة ذرية كثيرة جدًّا؛ لذلك فإنَّ قبائل كنانة كانت إذا اجتمعت هابتها العرب. وكانت قبائل كنانة وقبائل قيس عيلان في تنافسٍ دائم، وبينهما كانت حربُ الفِجَار.

وأمَّا ربيعة، فمنه وائل، ومن وائل قبيلتان عظيمتان من أشهر قبائل العرب قديمًا، هما بكر وتغلب، كما في الشكل رقم (4). وبينهما كانت أيام البسوس.

ومن كنانة، كانت قريش بكل بطونها وأفخاذها، وقريشٌ هذا هو فهر بن مالك بن النضر بن كنانة، كما بالشكل رقم (5)، ومنه جُمَح وسهم وعديّ ومخزوم وتيم وزهرة. ونسبهم إليه كالتالي:

جمح بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر.

سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر.

عديُّ بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر.

مخزوم بن بقظة بن مُرَّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر.

تيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر.

زُهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر.

ومن ولد فهر أيضًا، قُصيُّ بن كِلاب، فهو قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر. ولقصي عبد الدار وعبد العزى وعبد مناف، كما في الشكل رقم (7). وعبد مناف هو أعزُّ بطن في بطون قريش كلها.

هذا تبسيط موجز لأنساب بعض قبائل العرب العدنانية، وهو وافٍ إن شاء الله لما ذُكِرَ في هذا الكتاب.

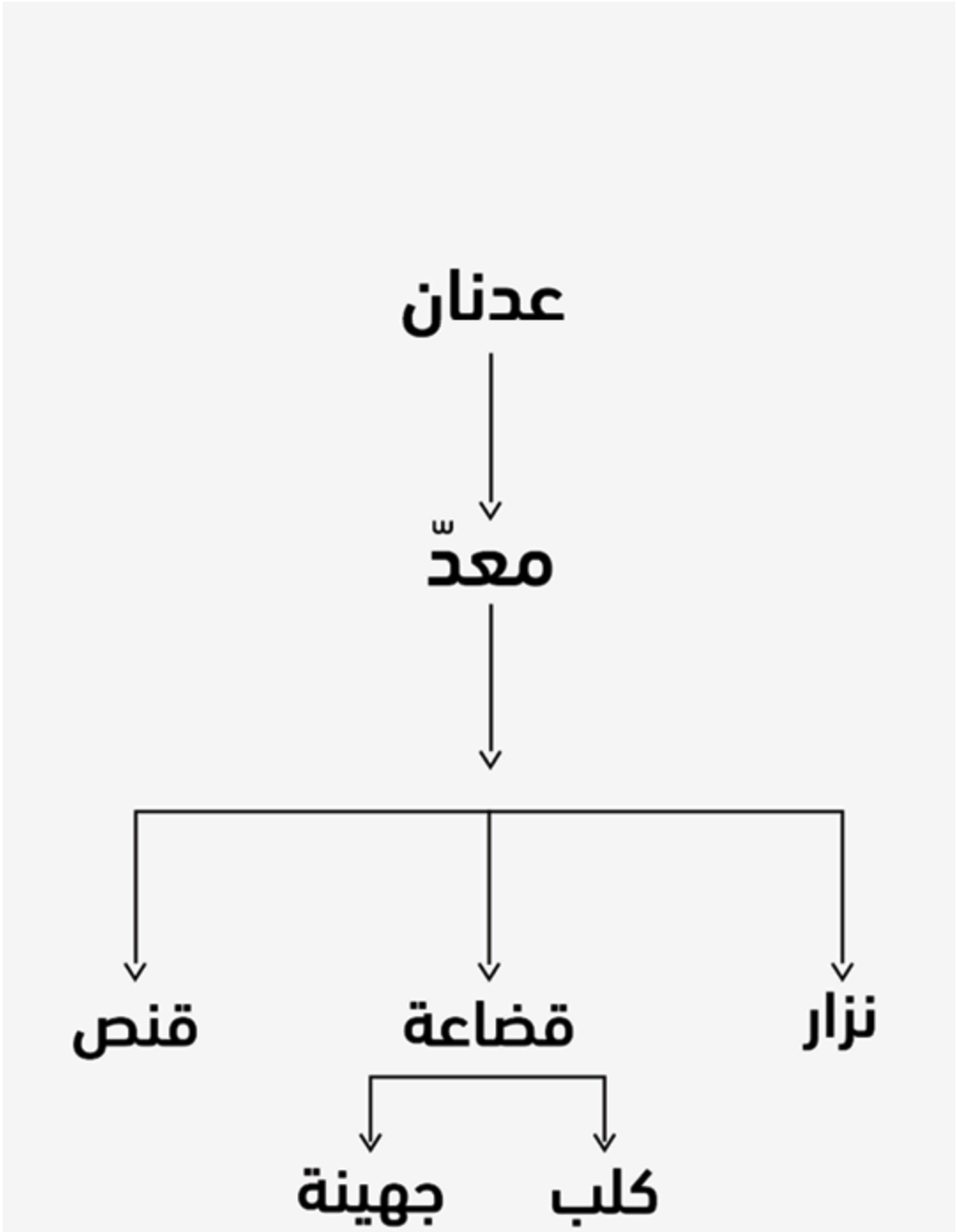

الشكل رقم ١

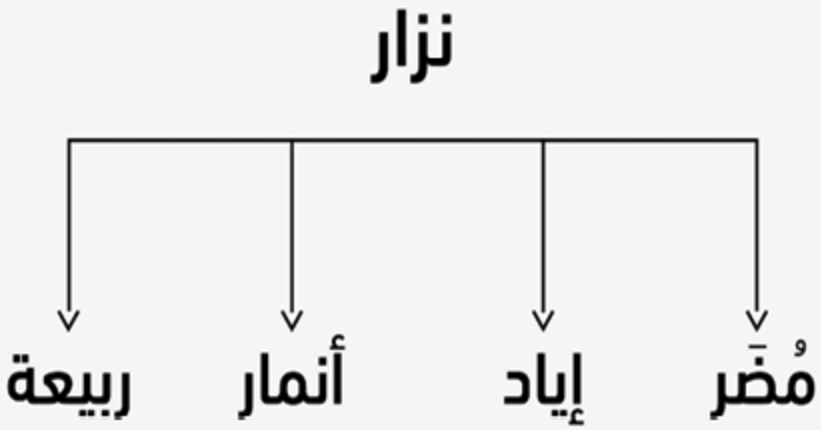

الشكل رقم ٢

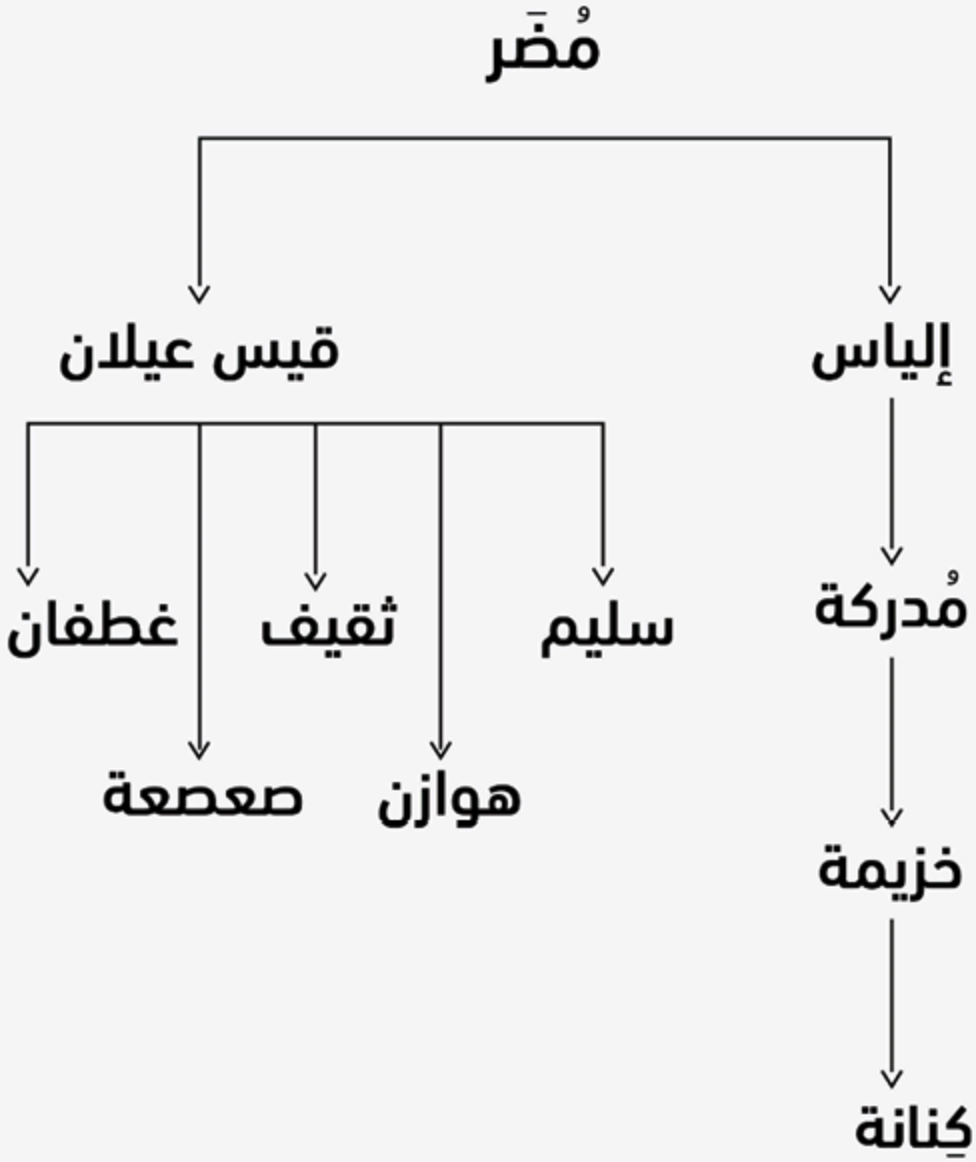
مُضَر
قيس عيلان
إلياس
غطفان
ثقيف
سليم
مُدركة
صعصعة
هوازن
خزيمة
كِنانة

الشكل رقم ٣

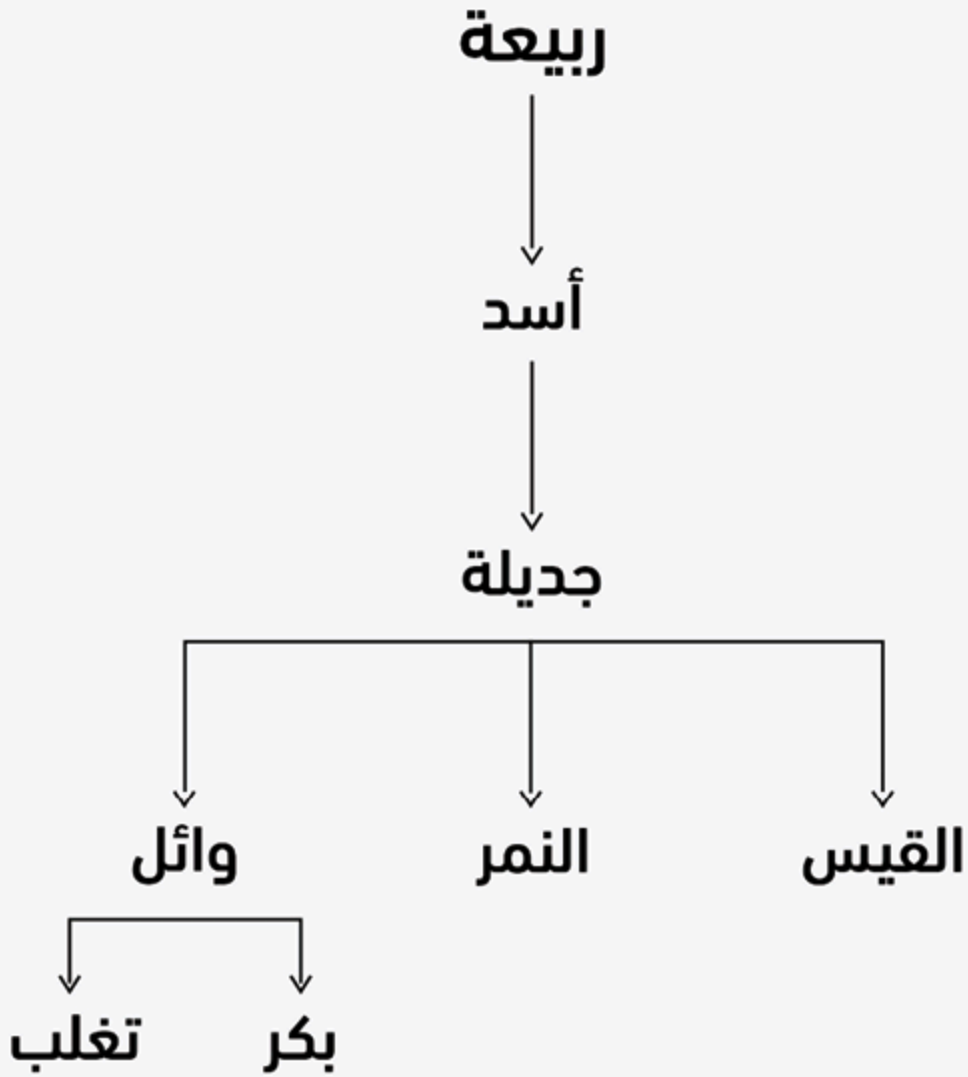

الشكل رقم ٤

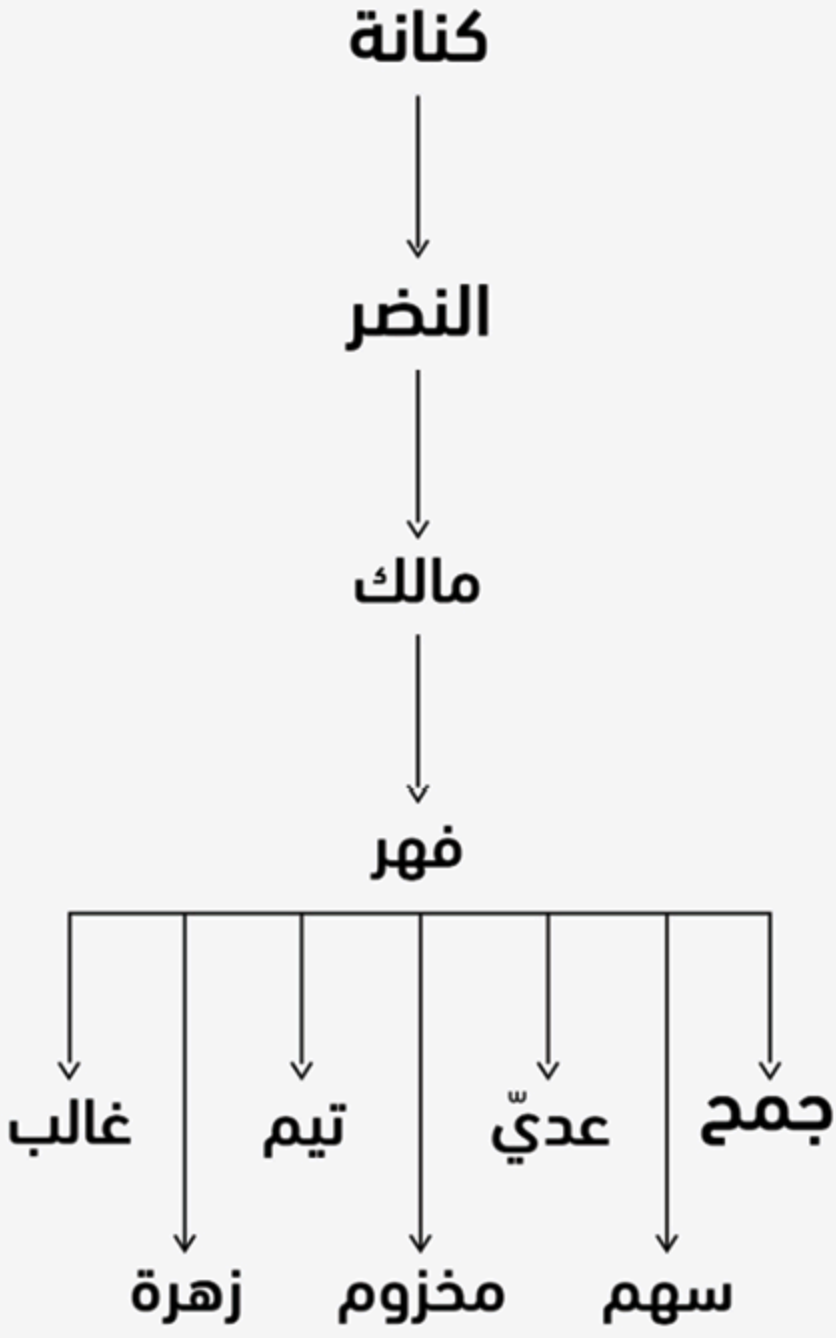

الشكل رقم 0

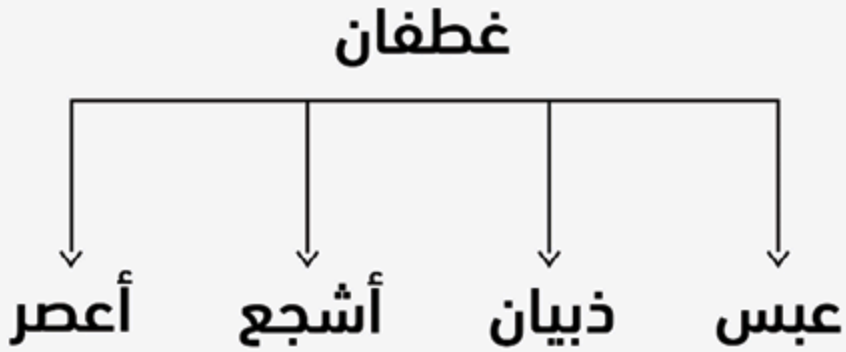

الشكل رقم ٦

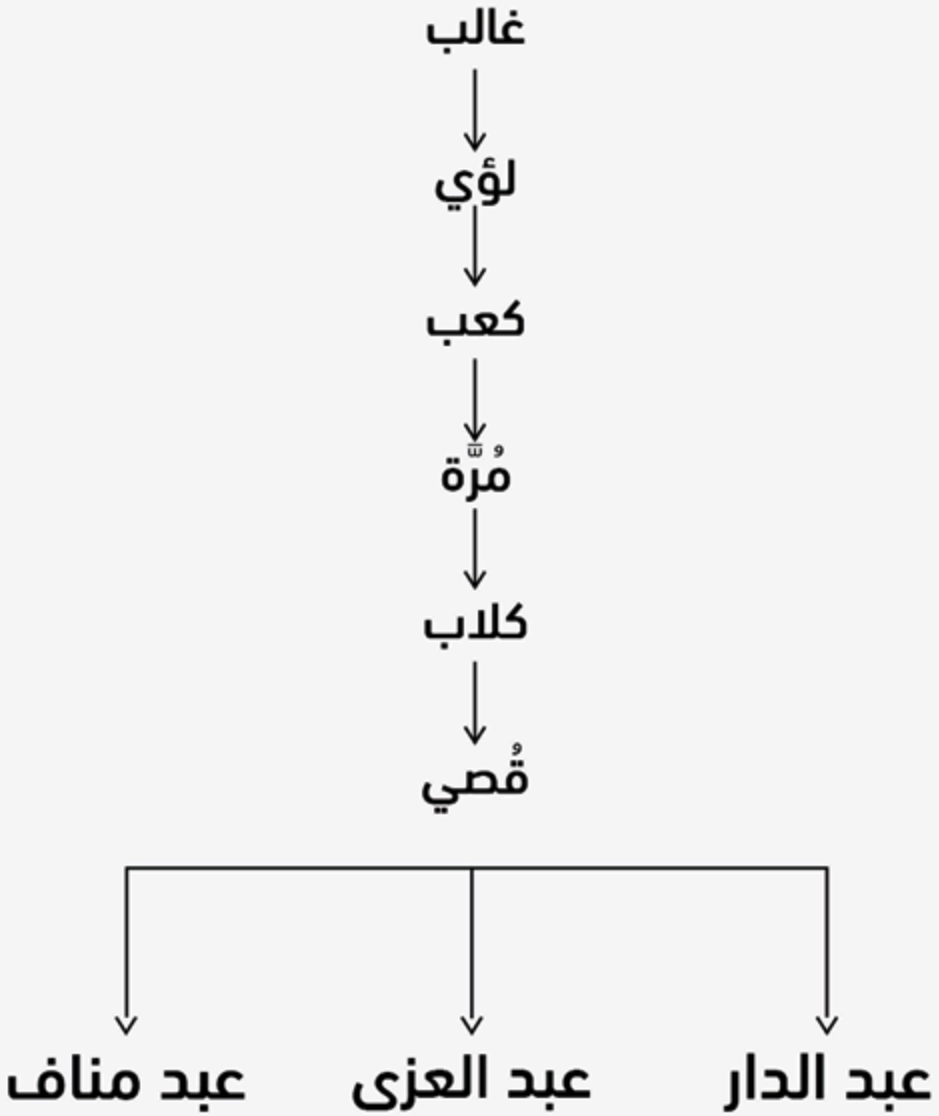

الشكل رقم ٧

المراجع

1. محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية، محمد الخضري.
2. البداية والنهاية، الحافظ ابن كثير.
3. الكامل في التاريخ، الحافظ ابن الأثير.
4. السيرة النبوية، ابن هشام.
5. الرحيق المختوم، صفي الرحمن المباركفوري.
6. حضارة العرب، غوستاف لوبون، ترجمة عادل زعيتر.
7. المُفصَّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي.
8. تاريخ جزيرة العرب، أندرو كرايتن، ترجمة هادي عبد الله الطائي، أحمد عبد الرحمن السقاف.
9. تاريخ الشعوب العربية، ألبرت حوراني.
10. الوجود التاريخي للأنبياء وجدل البحث الآركيولوجي، شبهات وردود، سامي العمري.
11. جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام، أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القُرَشي.
12. الفتوحات العربية في روايات المغلوبين، حسام عيتاني.
13. تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي.
14. تاريخ القرآن، عبد الصبور شاهين.
15. خلاصة تاريخ العرب، لويس سيديو، ترجمة محمد أحمد عبد الرازق.

1. الغلاف
2. أيَّامُ العَرَبِ
3. إهداء
4. بَيْنِي وبَيْنَك
5. تقديم قصير
6. الفصل الأول هِجرةٌ من الجنَّة
7. الفصل الثاني العرب البائدة
8. الفصل الثالث لسانُ أهلِ الفصاحةِ
9. الفصل الرابع شِق وسطيح
10. الفصل الخامس شِيَمٌ وخِلال
11. الفصل السادس أيامُ العرب
12. الفصل السابع نظرةٌ من أعلى
13. الفصل الثامن أصحاب الأخدود
14. الفصل التاسع نجم أحمد!
15. الفصل العاشر ذبحٌ وفداء
16. الفصل الحادي عشر شُهُبٌ تحترق
17. ملحق الخرائط
18. ملحق نسب العرب العدنانية
19. المراجع